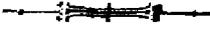


البالثلث

في الاجتماع



مطرات افطار

على صفحات البحار

في اوائل شهر يونيو من هذا العام (١٩٠٠)، كنت متردداً بين أن أفضى اجازتي في بلقاس، فأتتمتع برؤية مزارعها الخضرة، ورياضها الفيحاء، وبين أن اسافر الى أوروبا فاشاهد جبالها السامقة، ومدنها الغضة العامرة

وما زلت كذلك بين إقدام وإحجام، حتى رجحت كفة الميزان من جهة السفر لاسباب اربعة، وهي: دعوتي الى بعض المؤتمرات العالمية القانونية، وشهود المعرض الباريسي، والامثال لاشارة الاطباء على السفر تبديلاً للهواء، وطلب الشفاء مما اعترى صحتي من الاعتلال، بعد ما عانيته من عناء الاعمال، واشتغال البال، ثم للسعي في تخفيف ما ألمّ بفؤادي من الاحزان على اثر المصائب التي دهمتني بفراق من أعزّه، ولذلك عقدت العزم على مغادرة الاوطان

فما كان يوم ٢٢ يونيو ، الا وانا فى الاسكندرية على ظهر وابور
السيفال ، من سفن شركة الميساچرى ماريتيم ؛ وهذه المرة السادسة
التي ارحل فيها الى اوربا

وقد لاقيت فى السفينة بعض الاصدقاء الكرام ، مثل حضرة
احمد بك عفيفي^(١) وحضرة عمر بك رشدى^(٢) وانجالهما ، فقرحت
بلقائهم ، وان كنت بعد قليل قد استشعرت اقتباضاً غير عادى ،
فرددت سببه الى فراق الاهل والاجاب

وما اوفت الساعة على الرابعة حتى اقلعت السفينة وسارت باسم
الله مجراها ، تشق عباب الماء ، ونحن شاخصون الى الاسكندرية ؛
وما برحت ابصارنا متعلقة بالشواطىء المصرية ، حتى غابت عن
عيوننا ، ولم يلح لنا فى الافق الا خط دقيق اسود

وَتَلَفَّتْ عَيْنِي فَمُدَّ خَفِيَّتِي عَنِّي الدِّيَارُ تَلَفَّتْ الْقَابُ

وكان وقت العشاء قد حان ، فنزلت الى غرفة المائدة لعلى أحجز
منضدة لى واخوانى المصريين تجمع بيتنا كلنا ، فعيّنت لرئيس الخدم
تلك المائدة التي اخترتها فى وسط الغرفة بعيداً عن الرفاص ، فأكد
لى انها محجوزة باسمنا ؛ ولكن ما نزلنا بعد لتناول الطعام حتى
وجدناه قد غير وبدل ، وقادنا الى مائدة أخرى قريبة من موقع

(١) احمد باشا عفيفي (٢) المرحوم عمر باشا رشدى

الرقاص ، فساءنا ذلك ، وسرعان ما انتدبني اخواني لمقابلة قوميسير
الباخرة ، وهو الضابط المكلف بالنظر فيما يخص الركاب ، فلما
أفضيت اليه بجملة الامر ، طيب خاطري ، ودعا برئيس الخدم
فغنفه تعنيفاً شديداً رغماً عما كان يبادره به من المعاذير الكاذبة ،
وسؤاله العفو ؛ وعرض على الضابط ثلاث محال على مائدة الضباط ،
فشكرت له ذلك ، وآثرت أن أكون أنا واخواني على مائدة
واحدة . ومنذ حينئذ أخذ رئيس الخدم في ملاطفتنا وحسن القيام
على خدمتنا طول الطريق . ولما وصلنا الى مرسيلا لم نعظم سوى
نصف ما كنا عزمنا على منحهم اياه ، تأدياً لهم حتى يحسنوا سلوكهم
مع غيرنا

واني لم أتعرض لذكر هذه الحادثة الصغيرة في حد ذاتها ، الا لأين
أن الانسان لا يجوز له التساهل في حقوقه ، صغيرة كانت او كبيرة ؛
لان التساهل مما يذهب بها جملة ؛ وربما حمله بعض الناس على أنه
من مستوجبات رقة الجانب ، وحسن الخلق ؛ ولكني لا ارى فيه الا
ضعفاً وهواناً ؛ واني واثق من اني لو لم اقابل الضابط واكلمه كما ذكرت
ما بدا أثر الاعتناء بشأننا اثناء السفر ، فالتمسك بما للانسان مع
الاعتدال فرض تجب المحافظة عليه كما يجب القيام بسائر الواجبات
اذا انت لم تعرف لنفسك حقها * هواناً بها كانت على الغير اهونا

ولما اتھینا من العشاء وصعدنا الى ظهر السفينة ، كان الليل قد
أرخی سدوله ؛ فجلستُ على كرسی طويل ، وأخذتُ أتأمل فيما حولي ،
فاذا الركاب هذا يهرول في مشيته احتيالا على الهضم ، وهذا يدخن ،
وذاك يشرح لمن حوله حادثة من الحوادث ؛ والسيدات بين هذا
الجمع يمشين الهويناء ، تحديق بهنَّ الأَبصار ، ويحيطهنَّ الاحترام
الواجب للجنس اللطيف . ثمَّ شخصتُ الى السماء فاذا هي تتلألأ
بنجومها الزهراء ؛ ولم ألبث قليلاً حتى أخذتُ فكري في الاسترسال ،
فتذكرتُ هذا البحر العجاج ، ومن شقَّ عبابه من قديم الزمان ، والنیات
التي حرَّكت أولئك الأقوام فافتحموا الأخطار ، وتكبدوا مشاقَّ
الأسفار ، طمعاً في الوصول الى غاية حميدة ، أو نيل ما أرب خسيس ؛
هذا هيرودوت وغيره من علماء اليونان هبطوا مصر ليستنبروا
بمعارفها ، وهذا نابليون وغيره من الفاتحين جاؤا مصر لابتلاعها ،
وهؤلاء المصريون يسافرون في صيف كل عام الى الأقطار الأوربية ،
هذا لغرض شريف ، وهذا للرياسة ، وذاك لمجرد اللهو والطرب .
وها هم الافرنج غادروا بلادهم وقصدوا مصر ، وفيهم من تحلَّى
بالآداب والفضائل نخدم البلاد ، ومنهم من جعل استنزاف الثروة
نصب عينيه مضعياً في سبيلها كل احساس آخر . تنوعت المقاصد ،
والبحر وهو أكبر من كل ذلك ، يحمل هؤلاء وهؤلاء

كل من في الوجود يطلب صيداً * غير أن الشباك مختلفات
وفيا أنا في هذه الأمور أفكر، وإذا بالسفينة قد مالت ذات
اليمين وذات الشمال، والأمواج ترتفع وتلطمها من الجانبين؛ وما
بدأت هذه الحركة إلا وأخذ الركاب في النزول إلى غرفهم، فتجلدت،
ثم لم أزل بدأ من الاستراحة، فيممت الحجر، وقضيت الليل في
راحة أو ما يقرب من الراحة. ولما تنفس الصباح كان الجو قد اعتدل،
والبحر صفا؛ فنفر المسافرون إلى ظهر السفينة يتمتعون بالهواء النقي
والمنظر العظيم، منظر السماء والماء، يحيط به الأفق كالدائرة
العظيمة، فانتظمت الجمعيات، فكنت تجد هنا لفيف المصريين
مجتمعين يتحادثون، وهنا جماعة الأفرنج يتناقشون، وهناك تلك
الجمعية المختلطة التي تكثر أفرادها في بلادنا، ويصعب تسميتها باسم
مخصوص، لأنها في الشرق تظهر بمظهر الغربيين، وفي الغرب تظهر
بمظهر الشرقيين. ولم تمض ساعات قلائل إلا وكثر التعارف، وابتدأ
التألف

وهنا أخذت أتأمل فيما يتجلى حولى، فساقنى ذلك إلى المقارنة
بين تلك الجمعية الغربية، مع ما فيها من اختلاط الرجال بالنساء،
والحرية المخولة فيها لمن، حتى إن كثيراً من السيدات اللواتي كنَّ
معنا لم يكن معهن أزواجهنَّ، وكنَّ مسافرات وحدهنَّ، وبين

جمعيتنا الشرقية وما اليها من حجاب ونحوه . وبعد امعان الفكر في هذا الموضوع ، رأيت أن الافرنج فرطوا ، واننا أفرطنا . نعم ان بين نساء الغرب من السيدات المتريات الشريفات ، من هن في غاية الصيانة والعفاف مهما اعطين من الحرية ، ومهما كثر اختلاطن بالرجال . ولكن الحكم في هذه المسائل وغيرها ، انما يبني على مجموع الأمة ، لا على بعض أفراد امتازوا بالأدب والكمال

وأما نحن فلم نقف عند حد الشريعة ؛ بل تغالينا في الحجاب ، وأهملنا شؤون النساء ، فعاد هذا الاهمال على جمعيتنا بالخسران . فالدواء الوحيد هو الرجوع الى ما فرضته الشريعة بدون زيادة عليه ، لأن السلامة توجد حيث يكون الاعتدال

وقد دار الحديث بيني وبين بعض اخواني المصريين على سفر الشرقيات الى أوروبا ، فوجدت الجميع من رأيي وهو عدم استحسانه ، اللهم الا اذا كان لضرورة كمرض أو نحوه ، والأفخر وجهن من خدورهن ووجودهن في وسط لم يتعودنه مفسد لأخلاقهن ؛ فضلاً عن أن العيشة التي تعودنها من الصغر لا تحلوطن بعد عودتهن ولم يزل البحر ساكناً حتى اقتربنا من كريد ، وهناك قابلتنا أمواج كالجبال اضطربت لها السفينة خوفاً ، وامتألت منها قلوبنا رعباً ، وكأن بحر كريد اكتسب شيئاً من أخلاق أهلها ، فهو دائماً

في حركة واضطراب. وقد ذكرني اسمها ما جرى فيها من الحوادث في قديم الزمان وفي هذه الأيام، من حصار طويل؛ ثم فتح، ثم قلاقل وحروب، اشتركت في بعضها عساكرنا المصرية، ثم فنتها الأخيرة وانسلاخها عن الدولة العلية. ومهما تكن الأسباب التي قضت بانسلاخها، والتي يكون القول فيها من شأن السياسيين لا من شأنى، فاني أرى أن هناك سبباً عظيماً يجب التأمل فيه بالنسبة لها ولغيرها من البلاد التي فتحتها الترك، وهذا السبب هو عدم اختلاط الترك الفاتحين بالأمم التي فتحوا بلادها مهما طالت المدة، وتمادى بهم الزمان؛ فهم بمحافظتهم على الابتعاد الكلي بين الغالب والمغلوب؛ جعلوا الأهالى يترقبون الفرصة للتخلص من ثقل ذلك النير الذي على عاتقهم، والذي تذكروهم به كل يوم جنسيتهم التي لم تختلط، ولغتهم التي لم تتغير، وعلاقتهم مع الفاتح الذي لم يتزوج بهم؛ بل تركهم أمماً متفرقة، تجمعهم قوته، ويفرقهم ضعفه

وعلى العكس من ذلك كان العرب؛ فانك لو نظرت الى البلاد التي فتحوها، لوجدت ان لغتهم تغلبت على اللغة الأصلية، وان عوائدهم حلت محل العوائد القديمة، وانه بعد زمن قليل صار من الصعب التمييز بينهم وبين القوم الذين تغلبوا عليهم؛ لأنهم صبغواهم بالصبغة العربية، فأنسواهم أصلهم؛ ولذلك رغماً عن زوال مملكة

العرب ، بقيت البلاد التي احتلوها كما تركوها تدين بدينهم ، وتكلم بلغتهم ، وتمسك بعوائدهم ، وتنسب نفسها اليهم

وعلى ذكر العرب والترك ، مرّت بخيالي الوقائع البحرية التي حصلت للمسلمين على ظهر هذا البحر الذي كنت أشقّ عبا به . وكلما كنت أمعن في الفكر ، كانت تمرُّ أمام عيني هذه الحوادث بارزة مجسّمة ؛ فرأيتُ مراكب سيّدنا معاوية تسير من الشام الى القسطنطينية ، وعليها من أبطال العرب من تخرّ لبأسهم ألبال ؛ ولكن رغماً عن بسالتهم وإقدامهم ، لم يتمكّنوا من فتح هذه المدينة العظيمة ؛ لأن الروم كانوا يرمون مراكبهم بنار من أعلى الأبراج فتحرقها بدون أن يقدرُوا على اطفائها ، وبقيت في يد الروم حتى فتحها السلطان محمد الفاتح في سنة ١٤٥٣ م

ثمّ رأيتُ عمارة عظيمة قامت من تونس وعليها الأعلام الإسلامية ، فسارت في البحر شرقاً وغرباً ، جنوباً وشمالاً ، حتى بلغت شواطئ إيطاليا وفرنسا ، وخشى كل منهما بأسها . ولما اقتربت علمتُ أنها عمارة بني الأغلب ملوك تونس أصحاب الكلمة العليا في البحر الأبيض ، ثمّ رأيتها هجمت على جزيرة صقلية فافتحتها عنوة ، واحتلّها المسلمون سنة ٢٦٤ هـ ولبثوا بها نحو المائتي عام . وكانت الجزيرة في مدّة حكمهم عامرة ، تندفق من سهولها

الخيرات ، وينبسطها على سعادتها سكان ايتاليا المجاورين لها
ثم رأيتُ عمارة كبيرة عليها أعلام الانكليز والفرنسيين ،
قامت من أوروبا الى الشام ، لتخليص بيت المقدس من يد حامى
بيضة الإسلام السلطان صلاح الدين ، الذى كان أخذها من يد
المسيحين فى سنة ٥٨٣ هـ ؛ فاجتمع لقتاله ريكاردوس قلب الأسد
ملك انكلترا ، وفيليب أوجست ملك فرنسا ، وفردريك بريروس
ملك المانيا ، فلم ينالوا منه مأرباً ؛ وبعد قتال عنيف ، وعناء شديد ،
لم يستولوا الأعلى عكا ، ولكنهم لم يلبثوا بها قليلاً ، حتى انقلبوا
راجعين الى أوروبا مقهورين مدحورين . وهذه هى احدى الحروب
الصليبية التى سفكت فيها الدماء ، وتيمت فيها الأطفال ، واضطرب
لها العالم السنين الطوال ؛ قامت باسم الدين والدين برىء من مثل
هذه الرزايا ، ولكنها أهواء الرجال تستر وراء الدين أو المدنية أو
نحوها ، على حسب الزمان ، ومقتضيات المكان

ثم رأيتُ مراكب لويس التاسع ملك فرنسا ، وهى قاصدة
دمياط لى يتخذ صاحبها مصر قاعدة لأعماله فى الشام ؛ ولكنه
لم يصل الى فارسكور ، حتى قهرت جيوشه الجنود المصرية ، وأخذته
أسيراً فى يوم الأربعاء ٣ محرم سنة ٦٤٨ هجرية ، وسُجن بالمنصورة
بالدار التى كان ينزل بها القاضى نحر الدين ابراهيم بن لقمان كاتب

الإِشاءَ ، ووكلَ بِهِ الطواشي صبيح المعظمي . وقد قال في ذلك
الوزير جمال الدين يحيى بن مطروح عدَّة أبيات ، قال في آخرها :
قُلْ لَهُمْ إِنْ أَضْمَرُوا عَوْدَةَ لأخْذِ ثَارٍ أَوْ لِنَقْدِ صَبِيحِ
دَارِ ابْنِ لُقْمَانَ عَلَى حَالِهَا والقيد باقٍ والطواشي صبيح
ولم تزل هذه الدار باقية للآن

هذا ، ولما قصد لويس التاسع المذكور فتح بلاد تونس ، قال
شاب من أهلها يقال له أحمد بن اسماعيل الزيات هذين البيتين :
يا فرنسيس هذه أخت مصرٍ فتأهبْ لِمَا إِلَيْهِ تَصِيرُ
لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواشيكَ مُنْكَرٌ وَنَكِيرُ
وبينما أنا أتأملُ في هذه الحوادث ، واذا بأسطول جرَّار ، قد
رُفِعَتْ عَلَيْهِ أعلام مِثْأَةِ الألوَانِ ، يحمل نابليون الى مصر

أراد هذا القائد أن يحتل مصر ، ليعاكس الانكليز في الهند ،
ففتحها ، ولكن الأميرال الانكليزي نيلسون دمرَّ العمارَةَ الفرنسية
في أبي قير ، وساعد الانكليز الأتراك على إخراج الفرنسيين من
مصر ، فخرجوا منها بخفي حنين

ثمَّ وَجَّهَتْ فِكْرِي صوب الشواطئ اليونانية ، فرأيت منظرًا
هائلًا ؛ رأيت عمارة يخفق عليها الهلال ، راسية في ميناء صغيرة ،
وهي آمنة مطمئنة ، تمايل جواربها مع حركة الأمواج ، كالعروس في

ليلة زفافها ، وأكثر رجالها قد نزلوا الى البرّ للنزهة وقضاء بعض الأمور ؛ واذا بأسطول عليه أعلام مختلفة قد اقترب من الميناء ، فلم تحسب له العمارة الإسلامية حساباً ، لأنها ليست معه في حرب ؛ ولكنه بعد قليل فاجأها بنار حامية ، وقد أخذها على غرّة وهي واقفة ، فلم تستطع الدفاع فدُمِّرَت تدميراً . هذه هي واقعة ناغارين التي ذهبت فيها العمارة التركية والأسطول المصري ، فلم تقم لهما قائمة بعدها . وهذه السفن التي دُمِّرَتها هي سفن الانكليز ، والفرنسيين ، والروسين ، أطلقت على مراكبنا النيران فقتل منّا ستة آلاف رجل ، مع أنها لم تدخل معنا في حرب ، والحرب انما كانت بيننا وبين اليونان ، وكانت الهدنة معقودة بناء على طلب الدول وبعد أن تمثّل خيالي هذا المنظر المؤلم ، ضاق صدري ، ومنعت نفسي عن الاسترسال ، لأن الحوادث التي تلي كلها من هذا القبيل ؛ فتمشيت قليلاً ، ثمّ نزلت الى غرفتي لعلّي أجد في النوم بعض الراحة من التأثيرات والانفعالات التي كنت عرضة لها ؛ فصرت أتقلب على جنبي ، ولم تغفل عيناى الا قليلاً ، حتى أيقظتني صفارة الوابور المستمرّة ، فانتبهت من نومي مدعوراً ورأيت السفينة تمشي الهويناء فسألت عن الخبر ، وعلمت أننا دخلنا بوغاز مسين ، ورأيت ضباباً كثيفاً قد أحاط بنا ، فصرنا لا نرى أمامنا شيئاً ، وقد هرع الركاب

الى ظهر السفينة ، وكلمهم خائف متذكر غرق سفينة بورغونيا
حيث كان الضباب سبباً في اصطدامها بمركب آخر وغرقها . ولم نزل
كذلك نحو الساعتين حتى انقشع الضباب ، وصفا الجو ، فحمدنا
المولى على ذلك ونمنا حتى الصباح مطمئنين

ولما كان اليوم التالي ، جزنا بين جزيرة سردينيا التابعة لآيطاليا
وجزيرة كورسيكا التابعة لفرنسا ، والمشهورة بكونها وطن نابليون
الاول . وبعد ان فارقتها بقليل ، هاج البحر وارتفعت أمواجه ، ثم
اقتربنا من مرسيليا فلم نعبأ باضطرابه . وقبل وصولنا بعدة ساعات ،
شاهدنا جبال فرنسا ترتفع أمامنا ؛ ومازلنا نجد السير حتى وصلنا
الى محجر فريول في صباح الاربعاء ٣٧ يونيو ، لوجود الطاعون في
بورسعيد والاسكندرية . ومكثنا في هذه الميناء الصغيرة التي تحيط
بها الجبال من كل ناحية نحو ثمان ساعات ، حتى زارنا الاطباء ،
وطهروا المتاع الذي رأوا حاجة لتطهيره ، ولم نر منهم إلا كل لطف
وتساهل . ثم سرنا حتى دخلنا ميناء مرسيليا ، ومررنا من الجرك ،
فكان أول ما تلقانا به عماله هل معكم دخان ؟ وهم مع محافظتهم على
حقوق الحكومة مؤدبون لينوالعريكة مع الاجانب



من مرسيليا الى باريس
مرسيليا

هي اكبر مدن فرنسا بعد باريس وليون ، اختطها اليونان سنة ٦٢٠ قبل الميلاد ، وساعدها مركزها الطبيعي على البحر المتوسط ، فتقدمت تقدماً سريعاً ؛ حتى ان الرومان لم يستنكفوا من أن يعاهدوها . وهي الآن متسعة الأرجاء ، مشيدة البناء ، يقطنها ٤٤٠٠٠٠ ساكن ، وتجارتها واسعة لاسيما مع البلاد الشرقية ، ومصانعها تنحصر على الأخص في معامل الحديد ، والسكر ، والصابون ، ومعاصر الزيوت

وانشاء السكة الحديدية المعروفة بطريق سان جوتار الموصلة بين سويسرا و ايطاليا ، وتحسين ميناء جنوا ، قد أضرت بمرسيليا بعض الضرر ، فان ميناءها وخصوصاً بعد الإصلاح الأخير الذي تم فيها ، لم تزل اكبر المواني الفرنسية ، وأهم مواني البحر المتوسط وقد رأيت في أهلها نشاطاً عجيباً ، وتعلقاً غريباً بأسباب الكسب والحصول على الثروة ؛ (ولعل ذلك قد أتاهم بطريق الوراثة عن أجدادهم الأقدمين مؤسسى المدينة) وهم معجبون بأنفسهم ومدينتهم أيما إعجاب ، فيعتقدون في أشخاصهم النباهة والذكاء ، وفي مدينتهم أنها أعظم المدن وأحسنها ، خصوصاً بعد أن

خُطَّ فيها شارعها المشهور المعروف باسم الكانبير
ومرسيليا لجميع الموانئ تكثر فيها الأجناس ، فترى فيها الشرقي
بعمامة أو طربوشه ، والصيني بشعره المسترسل وراء ظهره ، والياباني
بلونه الأصفر ، وأمشاجاً من جميع سكان أوروبا على اختلاف ملابهم
وَنَحَائِهِمْ ؛ فإذا جلس الإنسان الى قهوة ، سمع هذا يتكلم بالعربية ،
وذاك باليونانية ، وآخر بالنمساوية ، بما يتوهم معه أنه في المنشية أو
في الأزبكية ؛ وان كان الاختلاط في بلادنا أكثر ، وتبلبل الألسنة
فيها أوفر

ولما كانت هذه المرّة الحادية عشرة التي وجدت فيها بمرسيليا ،
نويت أن لا أطيل فيها الاقامة ، وعزمت على السفر الى مونبلييه
في اليوم الذي وصلت فيه ، فأرسلت بمتاعى الى المحطة ، وركبت
عربة كى أقضى الوقت الذي كان باقياً الى قبل قيام الوابور في مشاهدة
عامّة ، لأرى ما أحدث فيها من جديد ؛ فررت من شارع الكانبير
وهو أهم شارع في المدينة ، تحفه المباني الفخمة من كل جهة ، وبه
قصر البورصة والفنادق المشهورة ، حتى انتهيت الى قصر لوشان ،
وبه متحف الصور الزيتية ، ومتحف التاريخ الطبيعي ، وخلفه حديقة
الحيوانات ؛ ومن هناك اتجهت الى شارع البرادو ويبلغ طوله عدة
كيلو مترات ، وقد غرست فيه أشجار كثيرة ، فوصلت الى قصر

بورلى وبه متحف الآثار، وقد زرته قبل ذلك فوجدت فيه رسماً
للمرحوم محمد على باشا رأس العائلة الخديوية، أهداه للمتحف
كلوت بك الطيب المشهور الذى سُمى باسمه شارع كلوت بك
بالقاهرة وأصله من مرسيليا، ورأيت فيه قسماً مخصصاً للآثار
المصرية، من موميات وتمائيل وغيرها. وعلى ذكر هذه الآثار أذكر
انى لم أزر متحفاً من المتاحف الاوربية إلا ورأيت فيه كثيراً من
آثارنا المصرية؛ ولكنى لم أَرَ بمتحفنا المصرى شيئاً من النفائس
الأوربية، وذلك وحده يدل على تفريطنا وحرص غيرنا، وعلى
اهمالنا وتيقظهم

ثم صرت الى طريق جميل على شاطئ البحر معروف بمتنزه
الكرنيس، ومنه الى كنيسة العذراء، وهى على مرتفع عالٍ يصعد
اليها الانسان الآن فى عربة معلقة بالسلاسل، فيرى أثناء صعوده
المدينة تمتد أمامه سطوحها المائلة من الجانبين، يكسوها القرميد
الأحمر، أو ألواح الازدواز الرمادى، ويرى من بينها الكنيسة
الكبرى بزخرفها وضحامتها ترتفع أبراجها نحو السماء

وللبجارة فى كنيسة العذراء اعتقاد كبير، وهم يسمونها كنيسة
السيدة الحارسة، وقبل سفرهم يأتون أفواجاً لزيارتها والتبرك بها،
وتزويد الطرف من تماثيلها الجميل المنصوب فوق قبتها، فيراه الداخل

الى الميناء والخارج منها يتألق في الشمس بلونه الذهبي ، وقد أتجه
الى البحر كأنه يحيط ملاحيه بحمايته ، ويكلاً هم بعين رعايته
ولما حان وقت السفر ، سرت متجهاً الى المحطة ماراً بسرأي
المديرية ، وسراي البلدية ، والتياترو الكبير وهو ضخيم البناء . ولما
استقرتُ بي المقام في عربة السكة الحديد ، تفقدتُ متاعى فلم أجد
شمسية كنتُ وضعتها مع احدى الحقائق ، فناديت الحمال وسألته
فأنكر أخذها وأتهم صاحب العربة ، وطلب منى أن أزيد له فى
الأجر لأنه حافظ على مالى ، وحجز لى فى العربة محلاً استريح فيه ،
فحمدتُ المولى على عدم ضياع ما هو أئمن من الشمسية ، وقلتُ فى
نفسى : وهذه أسرها لمسيليا

ثم سار بنا القطار ماراً على عدة محطات منها (آرل) المشهورة
بجمال نسائها ولطف أخلاقهن ؛ و (نيم) وهى مدينة جميلة زرتها فى
شتاء سنة ١٨٩٢ عندما كنت أطلب علم الحقوق فى مدينة مونبلييه ،
فراقبتُ منظرها وحسن معاشره أهلها . وقد أدهشنى ما رأيتُه فيها
عند زيارة مركز البلدية ؛ اذ رأيت شعار المدينة عبارة عن تمساح ونخلة
وهى كما ترى رموز مصرية ، فبحثتُ عن السبب ، حتى تحققتُ أنها
تأسست فى مدّة الرومان ، بواسطة فرقة عسكرية كانت تقيم فى
مصر ، فلما صدر لها الأمر بالتوجه الى نيم ، حفظتُ هذه الرموز

لتكون تذكراً دائماً للبلد الذي آواها ، وأكرم بفضلها مشواها . وهذا شأن مصر مع نزلائها ، ما سكنها غريب إلا أحبها ، ولا مرَّ بها ضيف إلا وتمنى الإقامة فيها ؛ لأنها طبعت على استئلاف الغريب بما تسديه من خيرها ، وإكرام النزيل بما توليه من برها ، وإن بانغت على بنيتها بجلها ، وآثرت بنعمها غير أهلها

وبعد نحو الأربع ساعات ، وقف القطار ونودي باسم مونبلييه ، فنزلت مسرعاً وأنا في غاية الشوق لرؤية هذا البلد الذي قضيتُ فيه ثلاث سنين من شببتي ، بين دراسة القوانين والعلوم الاقتصادية والمالية . وكانت الساعة العاشرة مساءً ، فأودعتُ حقيقتي النزل الكبير وهو على مقربة من المحطة ، وتمشيتُ في الشارع الذي أمامها حتى وصلتُ الى ميدان الكوميديا ، وبه أعظم القهاوى الكبيرة والتياترو ، فرأيت أنه من سنة ١٨٩٢ ، وهي السنة التي أتمتُ فيها دروسى وفارقتُ فيها مونبلييه ، تغيرَ شأن المدينة عن عهدي بها تغيراً عظيماً ؛ فالكهرباء حلت في الشوارع محلّ الغاز ، وسار الترامواى فيها فقرب المسافات ، ثم هُدمت المباني القديمة التي كانت مُطلّة على الميدان من الجهة الغربية فصار أكثر اتساعاً من قبل ، وشيّدت عليه المباني الجميلة والعمارات الشاهقة ، ثم غرست الحدائق . كل ذلك يدلّ على حياة المدينة ، وسهر القائمين بشؤونها على تحسينها ،

والتخطى بها في سبيل التقدم وال عمران . وبعد أن جلست هنيهة للاستراحة في بعض القهوات متأملاً فيمن حولي على أجد صديقاً قديماً ، أدركني التعب ، فقمْتُ الى غرفتي طلباً للراحة ، وما كدت أرقد في سريري إلا وهجمت علىَّ جيوش الأفكار ، فتذكرتُ مدّة الطلب ، وأسفت عليها لأنى كنت فيها مرتاح البال ، قوى البنية ، لا أعرف للأمراض اسماً ، حسن الاعتقاد في جميع الناس ، كثير الآمال ، لا يشغلني سوى الرياضة وهي لذيدة ، أو الدرس وهو ألد ، مؤملاً لوطنى سريع التقدم والنجاح ، راجياً في أهله السعى وراء الاتحاد والائتلاف لتقويم ما اعوجَّ من أخلاقهم ، واستدراك ما مرَّ من أغلاطهم ، يدهم بعضهم في يد بعض لكشف غياهب الجهل ، واقتباس أنوار العلوم ، وترقية الزراعة والصناعة والتجارة ، متعاونين على فعل الخير ، غير متباغضين ولا متقاطعين ، متناصحين كما يرشدهم الى ذلك العقل السليم ، وتدلم عليهم الشرائع ، ولا عجب إذا كانت هذه أفكارى وقت ان كانت الأشياء تظهر لى كلها بمظهر بديع ، وتلوح لى الطبيعة وكلها محاسن تأخذ باللب ، وما هى إلا عين الشاب ، يرى الأشياء كلها جميلة لقلّة اختباره . وما زالت الحوادث التى وقعت لى بعد هذا العهد السعيد ، تمر أمامى كأنها صور متحركة يديرها السينما توغراف ، فيفتّر لبعضها الثغر ابتساماً ، وينقبض من

بعضها الصدر أسفياً ، وتسيل عند رؤية الأخرى العبرات : من عودة للوطن العزيز ، ولقاء الأهل والأحباب ، فالأنحراط في سلك الحكومة ، فالتأثر مما تدل عليه القضايا من الأخلاق الذميمة ، والتقاطع بين الأهل ، والحسد والضغائن وحب الشر والابتعاد عن الخير ، مما يتألم له كل ذى احساس سليم ، ثم الاقتران ، فالبنون ، فالفراق ، فالآلام ، فكل أحوال الدنيا بما فيها من العيوب والكروب . واذ ذلك تأملت فيما كنت أراه حسناً جميلاً ، فوجدته فيجاً ضئيلاً ، وما هي العين الاختبار ترى الأشياء على حقيقتها ، وهل هي إلا سبع سنين ؟ فكيف بمن يعيشون السنين الطوال ، وتكثر عندهم الخبرة وتقل الآمال

وما زلت احتال على النوم ، حتى نمت بعد زمن ليس بالقصير ، وقت في الصباح مبكراً ، فتوجهت الى مدرسة الحقوق وقابلت ناظرها ، فاستقباني بكل ترحاب ، وأخذ يسألني عن حالي وعن أخواني الذين يعرفهم ، وقت من عنده كي أعيد النظر على المنازل التي كنت أقطنها ، واذ هي على حالتها ، ولكنني لم أقابل إلا قليلاً من المعارف ، لأن الطلبة الذين كنت أعرفهم تفرقوا في جميع أقطار الدنيا ، وصار منهم القاضي ، والنائب ، والطبيب ، والصيدلي ، والمحامي ، والكاتب ، والطبيعي ، والرياضي ، والجغرافي ، والتاجر ،

والمصوّر ، والزارع ؛ لأن مدينة موبلييه على صغرها ، اجتمع فيها من المدارس ما لا يحده الانسان في عاصمتنا المصرية على ضخامتها ، وكلها على غاية من الانتظام ، يقوم بالتدريس فيها أساتذة ماهرون من ذوى الشهرة في جميع أوربا ، كويسيوجيد استاذى في الاقتصاد السياسى ، وموسيو جراسيه صاحب الباع الطويل فى الأمراض الباطنية ، وغيرهما من العلماء الأفاضل البارعين فى جميع العلوم ، والمتفانين فى خدمتها وترقيها مدة حياتهم

وهنا ألاحظ فرقاً بين أخلاقنا وأخلاق الأوربيين ، فالواحد منا متى استوى فى مركز تطلع الى غيره ولو لم يكن من نوعه ، فالقاضى يريد أن يكون مديراً ، فيمنعه ذلك عن الانكباب على درس القوانين ، للوقوف على أسرارها ومعرفة عيوبها ، والاستاذ يريد أن يكون قاضياً ، فيعدل عن البحث فى الطبيعيات أو التاريخ الى مطالعة الشرائع . وقس على ذلك ما بقى . وأما الحال عند الأوربيين فانه متى اختار أحدهم طريقاً مشى فيه بجد واجتهاد ، وعمل ما فى وسعه ليمتاز فيه ، لأنه موطن نفسه على انه سيبقى به طول حياته ؛ فالقاضى الصغير لا يتطلع الا الى وظيفة قضائية أرقى من التى يشغلها ، وهذا لا يكون الا اذا اشتهر بين أقرانه بادراك المعانى القانونية ، واستنباط الأحكام القضائية . ولهذا السبب كثر من يبلغ منهم فى

علمه درجة بعيدة المنال، وربّ قاضٍ تزدهى بوجوده المحاكم والأحكام،
ولكنه في غيرها ضعيف الحيلة، كثير الخطأ

والطلبة شأن عظيم في موندليه، لأن عددهم فيها يزيد على
أربعة آلاف طالب متفرقين بين المدارس الابتدائية والتجهيزية
والمدارس العليا: كمدرسة الحقوق، ومدرسة الآداب، ومدرسة
العلوم الرياضية والطبيعية، ومدرسة الصيدلة، ومدرسة الزراعة،
ومدرسة الفنون الجميلة، ومدرسة التجارة، ومدرسة الطب وهي
قديمة العهد، أسسها العرب، وبقيت كتب ابن سينا تدرس فيها
الى عهد قريب

وبهذه المناسبة أذكر انه في سنة ١٨٩٢ عثر العملة وهم يحفرون
في أحد الشوارع على حجر من رخام، عليه كتابة عربية، فكان
لهذا الاكتشاف شأن كبير عند جمعية الآثار، فحافظت عليه
وانتدبتني وأحد الاخوان لحل رموزه وموافاة الجمعية بما تقف عليه
من أمره، وقد وجدنا هذا الحجر مثلث الشكل وارتفاعه يبلغ متراً
ونصفاً، وعليه كتابة من وجهين، والوجه الثالث مجوّف كالقناة،
وهو من الرخام الأبيض الناصع، كُتب عليه بالخط الكوفي الجميل،
المحلى بأوراق الشجر، البسملة من جهة، ومن جهة أخرى الآية
الكريمة « **إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا** »

ولذلك رجحت انه كان في « سبيل » ماء، وعرضت هذا الرأي على الجمعية فوافقت عليه، واستنتجت من ذلك ان العرب لم يعمروا بمونبليه مجرد مرور كما كان يزعمه البعض، بل استوطنوها وشيدوا فيها العمارات السامقة، كما يدل على ذلك هذا الحجر الذي وجد مدفوناً تحت الأرض، مع ما هو عليه من حسن الخط، ودقة الصنع والتأمل في حالة مونبليه، وهي مدينة لا يزيد عدد سكانها على ٧٣ ألفاً، وفي عدد مدارسها وما اليها من متاحف، وحدائق للنبات، ودور كتب، وما فيها من المستشفيات العديدة والمتنزهات والقصور العظيمة: كسراى المحاكم، والمديرية، والبوستان، والقلعة، والتياترو وغيرها، يرى الفرق الكبير والبعده الشاسع بين حالتنا الاجتماعية، والتقدم والحضارة التي وصلت اليهما الأمم الغربية، لاسيما اذا أضفنا الى ما تقدم جملة الصناعات التي يجدها الانسان في هذا البلد الصغير من معامل للماكينات، والموازين، والبللياردات، والشمع، والشوكولاتو، والنبيد، والأقمشة الصوفية، واللباغة، والغزل، والمطابع، والجمعيات العلمية العديدة: كجمعية الآداب والعلوم، وجمعية الآثار، والجمعية الجغرافية، والجمعية الطبية وغيرها؛ فالغربيون تقدموا أدبياً ومادياً بجدهم ونشاطهم، بينما تتفاخر بالعظام الرميمة، والأجسام البالية، جهلاً منا بأن هذا التفاخر مما يسجل

العار علينا، لأننا لم نحفظ مجد الآباء، ولا تليد الأجداد، فكنا كالوارث المبذر الذي لا يحسن التصرف، فيحجر عليه حتى يستقيم وإن طلبت مني دليلاً على ما قدّمت، فأقول لك انى كُلفت مرة من قبل شركة طبع الكتب العربية بمصر بانتقاء بعض الكتب المفيدة لطبعها على ذمة الشركة، فوقع انتخابي على كتاب الشريف الادريسي المشهور في تخطيط البلدان. والكتاب طبع مرتين في أوروبا، مرة في ايطاليا، وأخرى في هولاندا، ورأيتُهُ لأول مرة في مكتبة مدينة مونيخ، كما رأيت كتباً أخرى عربية نفيسة مما لا نعرفها إلا بالاسم، أو لا نعرفها بالمرّة، وكلها مطبوعة، وقد علّقت عليها الهوامش، وبعضها مترجم بالفرنسية واللاتينية، وهي تباع بأغلى الأثمان، ولا تكاد تطبع إلا وتنفد نسخها، ويتبارى في اقتنائها العلماء المستشرقون، والمكاتب العمومية. ولما عرضت نتيجة انتقائي على مجلس ادارة الشركة، اعترف جميع الأعضاء بأهمية الكتاب، ولكنهم لاحظوا انه لا يروج لعدم ميل القراء الى مثل هذه الكتب، ولذلك قرروا عدم طبعه الآن. واني لا ألوم حضراتهم بل آسف على حالة الأمة التي وصل فيها كساد العلوم الى هذا الحد وعندى برهان آخر وهو أن الشبيبة في كل أمة حيّة تكون عنوان النشاط والهمة، والأخذ بأسباب التقدم، لأن شبان اليوم هم

رجال الغد ، ولذلك تجدها في البلاد الأوروبية تعمل على التألف والاتحاد ، وتأسيس الجمعيات المفيدة ، ساعية وراء كل ما يعود عليها بالنفع ، ويعقد لها المستقبل الزاهر . فالطلاب في مدينة مونبلييه مثلاً ، تجد لهم محلاً فاخراً بنوه من ملهم لكي يجتمعوا فيه للمسامرة ، وإلقاء الخطب في وجوه المباحث النافعة ، والتمثيل ، وتعلم الضرب بالسيف ، وركوب العجلات ، والفوتوغرافيا ، والموسيقى ، ونحو ذلك من الكماليات ؛ وكل هذا في مقابل مبلغ زهيد يؤديه كلٌّ منهم شهرياً . وبهذه الوساطة ، وبفضل هذا الاتحاد ، حصلوا على امتيازات كثيرة مادية وأدبية : كوجود وفد نائب عنهم في كل حفلة رسمية ، ودخول التياترو بأقل من القيمة المقررة لغيرهم ، وشراء ما يحتاجون إليه من السلع بتزليل متفق عليه ؛ فهم أصحاب صوت محترم في المدينة وأما في بلادنا ، فلا يكادُ الانسان يحس بحركة تدلّ على وجود دم الحياة في عروق طلابنا ، فتلامذة الحقوق بمزل تام عن تلامذة الطب ، وهؤلاء لا يدرون من أمر اخوانهم بالمهندسخانة شيئاً ؛ وقس على ذلك سائر المدارس . وليس ذلك لعدم ادراك ما ينجم عن الاجتماع من الفوائد ، لأن ذكاء التلامذة المصريين معروف ، ولكن لعدم التعمّد على تأسيس الجمعيات والنوادي فإياها المنادون بتأسيس الشركات ، ويا من يستحثون الأمة

المصرية على التكاتف والتعاون على العمل لما فيه مصلحتها ، هلاً
تركتم الآباء وشأنهم ، وقد خُلِقُوا كما ترونهم وصُعِبَ عليهم المسير بغير
ما تعودوا ، والتفتُّم الى الأبناء فانكم تجدون عجينة لينة يمكن تشكيلها
بالشكل المطلوب ، تجدون دماً طاهراً وقلباً يميل الى الخير واكتساب
المعالي ، تجدون نفوساً زكية تعمل على كل ما يعود على البلاد بالرقى
والإصلاح متى وجدت مرشداً عاقلاً ، ونصيحاً أميناً ؛ وهي ان
تعوّدت هذه الأخلاق الكريمة في صِغَرِها ، صارت طبعاً غريزياً
فيها متى كبرت ، وأصبح من الصعب عليها العُدول الى ما يناقضها ...

*
*
*

وفي عصر يوم الخميس ٢٨ يونيو ، ركبْتُ القطار من مونبلييه ،
فوصلتُ بعد عشرين دقيقة الى بلافاس . وفي طريقي مررتُ على
(لات) وهي قرية صغيرة ، رأيت فيها بقية سور من الحجر كان
ابتناه العرب عند ما احتلوا هذه الجهات ، وما زالت القرية محافظة
عليه لليوم ، وهو من الحجر الأبيض يبلغ سمكه نحو المتر وارتفاعه
نحو المترين ؛ ويظهر أنه كان يحيط بالقرية من جميع الجهات ،
ورأيت في الجزء الباقي منه أثراً لبوابة كانت مركبة عليه فقلت في
نفسى : سبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .
أما بلافاس ، ففي ميناء صغيرة على البحر الأبيض المتوسط ، وفي

الشتاء لا يسكنها إلا الصيادون ، وأما في الصيف ، فيكثر فيها
المسافرون لأن بها كازينو وعدة فنادق وحمامات ، فيمضون بها
الأسابيع الطوال للاستحمام بماء البحر ، والتمتع بهوائه اللطيف
ومما لاحظته فيها ، ان حمام الرجال والنساء واحد ، بخلاف ما
تقتضيه الآداب ، ويطلبه الكمال

ثم رجعت الى مونبلييه ، وقتت منها مودعاً في الساعة الحادية
عشرة مساءً ، قاصداً مرسيليا لمقابلة بعض الاخوان ، والسفر منها
الى باريس . ولما وصلنا الى مدينة تارسكون ، نزلنا لتركب القطار
المسافر الى مرسيليا ، فرأيت على افريز المحطة رجلاً يحيط به
آخرون ، وهو يفتش في ثيابه ، فاقتربت منه وعلمت أن لصاً سلبه
ساعته عند نزوله ، ورأيت في الجمع رجلاً يكثر من الإشارات
والتهديد ، كأن اللص الذي سرق الساعة أمامه ، أو كأنه تخيل طراً اذا
يريد أن يسلبه متاعه ، فأخذ يحذره قائلاً : أما أنا ، فلا يسرقني
سارق ، ولا يقدر لص على ان يسلبني شيئاً ، فتلك الأعصاب
والعضلات (مشيراً الى ذراعيه) ، تحميني من كل معتدٍ أثيم الخ .
الخ . فضحكت من كلام هذا المهذار ، وعلمت من افتخاره بنفسه
انه من مرسيليا ، وقد سألته عن بلده فما أخطأني حدسي
ولم تبلغ مرسيليا إلا الساعة الخامسة صباحاً ، ولم تغفل عيناى

طول الطريق ، لا سيما بعد علمي بما جرى لصاحبي بتارسكون ؛
فقصدتُ نزل اللوفر، وعوّضتُ ما فاتني من النوم . وفي الساعة التاسعة
مساءً ركبْتُ قطار الرايد ، الذي يقطع المسافة بين باريس ومرسيليا
— ويبلغ طولها ألف كيلومتر تقريباً — في ١٣ ساعة ، وقد سلكتها
سبع مرّات ، تارةً بالليل وأخرى بالنهار ، وكنتُ أتوهمُ إني سأثرين
بساتين يتبع بعضها البعض لكثرة ما كنتُ أشاهده من الأشجار
والقدران والأنهار . وقد لاحظتُ ان أغلب الفلاحين يسكنون في
غيطاتهم حتى يكونوا على مقربة من منّاطِ عملهم ، فلا يضيعون الوقت
في الذهاب الى مزارعهم والعودة منها ؛ فترى منازلهم الصغيرة النظيفة
المبيضة بالكلس والمبنية بالحجر ، منتشرة في وسط الأراضي ،
ومجوارها حظيرة المواشي ، وأعشاش الطيور المنزلية ، وهذه الطريقة
حسنة ، ولكن لا يتوفّر العمل بها إلا في البلاد التي يسود فيها
الأمن ، وتستتبّ فيها أسباب الراحة

والزروع التي كنتُ أشاهدها ، هي في الجنوب : العنب
والزيتون ؛ وفي الشمال : القمح ، والكتان ، وأشجار الفاكهة الأخرى ،
والبنجر الذي يستخرجون منه السكر والبقول ؛ وكلّ ذلك يُسقى
بماء الأمطار ، فلا يؤثر فيه ارتفاع الأنهار أو قلّة الفيضان . أما
معدن الأرض فرملي حجري ، ولكن اجتهاد الفلاح ، واستعماله

الآلات الزراعية المتقنة، مع الاستفادة من الاكتشافات والاختراعات العلمية، جعل هذه الأرض القاحلة جنة من جنات الأرض، واستخرج منها على ما علمت محصولاً أوفر من المحصول الذي تخرجه الأراضي المصرية؛ فقد رأيت في العام الماضي تقريراً، أظن أنه لمصلحة الدومين، ومنه يتبين ان متوسط محصول الفدان من القمح في بلادنا، ينقص بقدر الثلث عن مثله في فرنسا؛ فعجبت لذلك، ولكني رجعت فقلت ان الأمر لا يستغرب على قوم خرقوا الصخر، وبنو المدن على ثبج البحر

والسكة الحديدية تمر بمدن كثيرة مشهورة: كمدينة أرل وتارسكون، وأهلها كجيرانهم سكان مرسيليا مشهورون بشدة الافتخار والذهب بالنفس، و(افينيون) التي كانت محلاً للكربى البابوى من سنة ١٣٠٩، الى سنة ١٣٧٦، وللبابا فيها قصر قديم، ومدينة (مونتيليمار) المشهورة بنوع الحلوى المعروفة بالجوزية، وهي ايضاً بلد موسيو لويه رئيس جمهورية فرنسا الآن، ومدينة (فلانس) عاصمة مديرية الدروم على نهر الرون، ومدينة (ليون) أكبر مدن فرنسا بعد باريس، وهي مشهورة بصنع الحرائر الجميلة، زرتها من سنتين فوجدتها مدينة عظيمة تكثر فيها التجارة، وبها من الشوارع الكبيرة، والمباني الفاخرة شيء كثير، وأخلاق أهلها

على العكس من أخلاق أهل مرسيليا، فهم ميالون الى الدعة والدأب على العمل بدون ضوضاء، ولذلك تجدد الحركة في الطرق العمومية قليلة لانكباب أهلها على الاشتغال في المعامل، وقلة وجود العاطلين فيها. وفيها من المدارس الكبيرة والمستشفيات العمومية، ما يضارع أعظم ما يوجد في أكبر مدن أوروبا؛ ثم مدينة (ديجون) وهي أيضاً من المدن التي تكثرت فيها المدارس، وهي مركز مديرية الكوت دور، التي شهرت بكونها وطن بوسويه الخطيب الفرنسي في القرن السابع عشر

وقد وصلنا الى محطة باريس حوالي الساعة العاشرة صباحاً، بعد ان قضيت الليل بين نوم وحديث مع فرنسي وانكليزيين كانوا راكبين معي

فحمدت الله على السلامة، ونزلت الى فندق بوجون بمحلة الشان ايليزيه، حيث كنت حجزت لنفسى غرفة فيه

فطرات أقطار عمه مدينة الأتوار

باريس

يقف البنان، ويحجم اللسان، عن وصف هذه المدينة الكبيرة، بل الدنيا الصغيرة، وتضيق العبارة عن تأدية المراد، وتقتصر الألفاظ

عن الاحاطة بما في الفؤاد ، كيف لا وهي باريس التي شغلت بجمالها
ألباب الشعراء ، كما شغلت بحاسنها تأليف الأدباء ، فسكانها يبلغ
عدد هم الثلاثة الملايين ، ومحيطها يبلغ طول دائرته ستة وثلاثين
كيلومتراً ، وطولها اثني عشر كيلومتراً ، وعرضها تسعة كيلومترات ،
ومسطحها نحو العشرين ألف فدان ، وجوّها جيد معتدل ، ولكنه
سريع التقلُّب ، فقد وصلت فيها الحرارة في ٩ يولييه سنة ١٨٧٤ الى ٣٧
درجة ، ووصلت في صيف هذا العام الى ما يقرب من ذلك ، واشتد
فيها البرد حتى هبطت الدرجة فيها الى ٢٣ تحت الصفر في ١٠
دسمبر من سنة ١٨٧٩ ، وتكثر فيها الأمطار لاسيما في زمن الصيف ،
فتلطّف الهواء ، وقد دلّت الاحصائيات على ان عدد أيام السنة التي
تنزل فيها الأمطار ٢٠٠ يوم ، وان عدد أيام الصحو ١٠٠ ، فهذا
العدد الذي يراه المصري قليلاً بالنسبة لما تعودّه في بلادنا ، هو في
الحقيقة عظيم بالنسبة للبلاد الاوروبية التي تكثر فيها الزوابع
والأمطار

وباريس قديمة العهد ، وكانت تعرف قبل المسيح باسم
(لوتس) ورد ذكرها في كتاب يوليوس قيصر القائد الروماني
الذي افتتحها سنة ٥٢ قبل الميلاد ، وكانت في هذا الوقت عاصمة
أمة الباريسيين ، ومنهم أخذ اسمها الحالي . وقد تنصّر أهلها في

القرن الثالث ، وأقام فيها قونستنس امبراطور الرومان مدة طويلة ،
كما أقام فيها كثير من خلفائه

وفي سنة ٩٧٤ اتخذها كلوفيس ملك فرنسا عاصمة للبلاد
الفرنسية ، ولم تزل كذلك الى يومنا هذا . وهي واقعة على نهر
السين الذي يمر من وسطها ، فيشطرها شطرين ، تربط بينهما ٢٥
قنطرة عظيمة ، بعضها من الحديد ، والبعض من الحجر ، ومتوسط
عمق النهر ثلاثة أمتار تقريباً ، وأما عرضه فيختلف بين ١٣٦ متراً
و ٢٩٣ متراً

وهي تنقسم ادارياً الى عشرين قسماً ، في كل قسم منها عمدة
منتخب من قبل الأهالي ، وقاض للمصالحات ، وكل من هذه
الأقسام ينقسم الى أربعة أحياء ، كل حي ينتخب أربعة أعضاء
لمجلس البلدى ، وهذا المجلس ينتخب رئيساً له من بين أعضائه ،
وينظر في كل ما يتعلق بالمدينة من نظام ونظافة ونور وأموال ونحو
ذلك ، فاذا انضم اليه الثمانية الأعضاء المنتخبون بمعرفة أهل القرى
المجاورة لباريس ، يكون مجلس مديرية السين ، وينظر في الشؤون
المتعلقة بهذه المديرية بما فيها باريس كرسى المديرية

ويرأس المديرية مدير ، كما يرأس البوليس مدير آخر ، يقال له

مدير بوليس باريس

وباريس لم يكن فيها في أوائل هذا القرن التاسع عشر، سوى ٥٤٧٧٥٦ ساكنًا، فأصبح عدد سكانها اليوم خمسة أضعاف هذا العدد، وهذه الزيادة السريعة لم تكن ناشئة عن زيادة المواليد، ولكن من كثرة الأجانب، وسكان الأرياف الوافدين عليها من كل حدب للإقامة فيها؛ فقد لوحظ أنه لا يوجد بين سكان باريس وهم كما علمت ثلاثة ملايين، سوى ٨٠٠٠٠٠ تقريباً مولودين في نفس المدينة، وقد دلت الإحصائية التي عملت سنة ١٨٨١ على وجود ١٦٧٤١٤ أجنبياً من عشرين مملكة مختلفة، بينهم ٧٧١ من رعايا الدولة العلية، وهذا العدد يزيد بما يقرب من ثلث عدد الأجانب المقيمين في القطر المصري، كما هو وارد بالإحصائية التي عملت في العام الماضي

ووسائل النقل كثيرة في باريس كما يقتضيه اتساع أرجائها، وبعد أطرافها، فتجد بها الآلاف من العربات، والترامواي الذي تجره الخيل، أو تسير به الكهرباء، ومركبات الأمتبوس، والسفن، والسكك الحديدية التي تمشي على سطح الأرض، أو تنساب في جوفها تحت الشوارع والمنازل، وكلها مزدحمة بالركاب ليلاً ونهاراً وأما التجارة والصناعة، فحدث عنهما ولا حرج، ولولا ضيق المقام لسردت طرفاً من المصنوعات التي تعمل في باريس، وتكلمت

عن المخازن العمومية، كاللوفر وغيره، مما تشغل ادارته عمالاً لا يقلون عن موظفي أحد الدواوين الكبيرة عدداً، وإنما هناك صناعة انفردت بها باريس، واشتهرت بها بين جميع الأمم، وهي ما يسمونه بالأصناف الباريسية، وهي عبارة عن المصوغات، والمجوهرات، وأدوات التدخين، والكتابة، والموبليات الصغيرة، ونحو ذلك مما وجد فيه الذوق الباريسي مجالاً للظهور، ومعرضاً يجلب فيه، فقصر عن مجاراته كل مجارٍ، معترفاً له بالسبق والفوز. وهذه الأصناف وحدها كانت تشغل في سنة ١٨٧٥ - ٣٤٩١٨ عاملاً، معدل أجرة كل واحد منهم ثلاثة فرنكات ونصف، ولا مشاحة في أن هذا العدد، لا بد وأن يكون قد ازداد كثيراً من ذلك العهد، وزادت معه نسبة الأجرة التي يتناولها كل عامل. ويتبع ذلك من البيوتات التجارية والمالية، ما يضيق عن حصره الفكر، وحسبك يدنك فرنسا الذي طبقت شهرته الآفاق، ومن هنا تعلم مبلغ الحركة المالية التي توجد في باريس، والأعمال التي تتم كل يوم في بورصتها

وهذه الأعمال التجارية، وهذا الاشتغال بالأحوال الدنيوية، لم يمنع الباريسيين من مساعدة البائسين، ومعاونة العجزة والمساكين، ومؤاساة أصحاب العاهات، ومد يد المعونة لأرباب الحاجات،

فشيّدوا المستشفيات الكبيرة، والملاجئ الكثيرة، وبنوا المدارس المجانية، ورتبوا المرتبات الكافية لمن عضهم الدهر بناه، توزع عليهم بمعرفة مكتب المساعدة والأسعاف الموجود بكل قسم من أقسام المدينة؛ فكان لهم بذلك عظيم الفخر، وجزيل الأجر.

والمدارس في باريس كثيرة العدد بين عمومية وخصوصية، أهلية وغير أهلية، وكلها في غاية الانتظام من حيث البناء والترتيب أو الدرس وانتقاء المعلمين. وشهرة هذه المدارس قديمة، فمن القرن الثالث عشر، كانت تفد إليها طلاب البلاد الأجنبية، للاقتباس من أنوارها، والتزود من علومها. وفي القرن السادس عشر، انعقد الإجماع على أن باريس هي عاصمة الأنوار، ومحط رجال الذوق السليم، ومهبط الآداب

وأشهر تلك المدارس، مدرسة الطب، ومدرسة الحقوق، ومدرسة العلوم الرياضية والطبيعية، ومدرسة الآداب، ومدرسة الصيدلة، ومدرسة اللاهوت، ومدرسة اللغات الشرقية، ومدرسة العلوم السياسية؛ كل ذلك بخلاف المدارس الابتدائية والثانوية، ومدارس التجارة والصناعة والرسم مما يصعب حصره. ويتبع ذلك جمعيات علمية كثيرة، ومكاتب عمومية كبيرة، كالجمع العلمي الفرنسي، وجمعية الفنون الجميلة، والجمعية الطبية، والجمعية الجغرافية

وغيرها مما تفتخر بمثله البلاد، ويحق لها ان تفتخر، لأن هذه المجتمعات العالمية ليست فقط اسمية، وإنما تضم من أكابر الرجال، من يخضع أمام عالميته الكبير والصغير، ويعترف بفضله الأمير والحقير وأما دور الكتب، فأشهرها المكتبة الأهلية، وبها ١٢٠٠٠٠٠٠٠ مجلد من الكتب المطبوعة و ١٠٠٠٠٠٠٠ مجلد من الكتب المخطوطة؛ ومكتبة سنت جينيفيف، وفيها ٢٠٠٠٠٠٠ مجلد. والزائر لهذه المعاهد يأخذ العجب من حسن ترتيبها، وكثرة كتبها، وكيفية تنسيقها، الى ما يجده فيها من كثرة المطالعين، وازدحام الباحثين، شأن كل أمة عرفت قيمة العلم، وقدّرته حق قدره، فبذلت في نيله عزيز المال، ونفيس الأعمار، فحصلت منه على الشيء الكثير، فكان لها سيفاً تقطع به مشكلات الأمور، وترسأ تنقى به تقلبات الدهور

وأما الشوارع والميادين الجميلة فكثيرة، لا يخلو منها حي من الأحياء، وكلها مرصوفة بالبلاط، أو الأسفلت، أو الخشب، لا يسهو عمال الكنس والرش عن تنظيفها في كل وقت. وأهم الشوارع ما يسمونه بالجران بولفار، أي الشوارع الكبيرة، وهي متصلة ببعضها على طول عدة كيلومترات، مكونة لقوس دائرة عظيمة. وتجد بالميادين التماثيل المنصوبة لأعظم الرجال، والأعمدة

الأثرية، والفساقى المتدفقة بالماء العذب، وهى مع حسن منظرها،
وبهاء روتقها، تذكر الأمة بمجدها، وتعلم الأطفال والشبان حب
الوطن، حتى يصلوا الى درجة هؤلاء العظماء الذين أُقيمت لهم
التمائيل، ويتركوا اسماً مخلداً فى التاريخ محفوظاً بالتجلة والاحترام
ومن أهمها ميدان الجمهورية، وبه تمثال عظيم للجمهورية. وميدان
فندوم، وبه عامود قام على ذروته تمثال نابليون الأول، وهذا العامود
مصنوع بصفائح سميكة من برونز المدافع التى غنمها صاحب التمثال
فى حروبه مع النمساويين والروسين. ثم ميدان الكونكورداو
الوفاق، وهو أجمل ميدان وُجد فى العالم بأسره، لاتساعه واتقان
التمائيل التى تحيط به، وجمال الفساقى المنتشرة فى أتحائه، ومن هذه
التمائيل تمثال عظيم مرموز به للألزاس واللورين التى فقدتها فرنسا
فى حربها مع المانيا سنة ١٨٧٠، وهو دائماً مكلل بالزهور، وفى
وسطه مسلة الأقصر المصرية، التى أخذها الفرنسيون فى سنة
١٨٧١، وهى موشاة بالكتابة الهيولوجرافية، وقد حلاها الفرنسيون
بالذهب، وكمن مرة وقفت بجوار هذه المسلة، وهى مثلى غريبة،
وتذكرت الوطن ومن فيه، وتذكرت أيضاً مسلة المطرية، واهمالها
فى وسط الفيضان، والاعتناء بمسلة الأقصر، ونصبها فى أعظم
ميدان بباريس، وقلت فى نفسى كم من عالم مجهول بين معشره

وخاصة أهله ، على حين يعترف الاجانب بجميل أثره وجزيل فضله
وقد يعجز الواصف عن ذكر ما يحيط بهذه الميادين ، ويرتفع
على جوانب هاتيك الشوارع من القصور الباذخة ، والآثار الثمينة ،
والعمارات السامقة ؛ وأى قلم يمكنه ان يحيط بما أُودع فيها من حسن
الصنع ، وما اشتملت عليه من بديع الفنون . فهذا قصر اللوفر الشهير
الذى بدأ فى بنائه فرانسيس الأوّل سنة ١٥٤١ ، ولم يتم إلا فى مدة
حكم نابليون الثالث سنة ١٨٥٧ ، وهو الآن أكبر متحف فى العالم ،
وبه قسم عظيم للعاديات المصرية ، قضيت فيه ثمانى ساعات ، فلم
أرَ كل ما حوى من النفائس بين تماثيل وصور وأوانٍ وغير
ذلك . وهذا قصر لوكسمبرج ، وقد بنى فى سنة ١٦١٥ لمريم
دى ميديسى ملكة فرنسا وأم لويس الثالث عشر ، وهو الآن
مركز مجلس الشيوخ ، وبه متحف للتماثيل والصور الجديدة . وهذا
قصر الاليزيه ، مركز رئيس الجمهورية بحدائقه الزاهرة ، وغرفه
الفاخرة . وهذا القصر الملوكى الذى شيده الكردينال ريشيليو
سنة ١٦٢٩ ، وهو الآن مجلس شورى الحكومة . وهذا قصر
بوربون ، مركز مجلس النواب . وهذا قصر التروكاديرو الذى بنى
لمعرض سنة ١٨٧٨ ، وهو الآن متحف لأخلاق الأمم ، وما يتعلق
بها من ملابس ونحوه . وهذا قصر البلدية الرائع . وهذه السرايات

الخصوصية. وهذه النوادي والمحلات العمومية ، تسابقت في الزخرف
والبهاء ، وتواست في الحسن والرواء ، فكانت بهجة للناظرين ،
ونفراً دائماً للمشيدين

وما يقال في العمارات والقصور ، يقال في المتاحف ومراسح
التمثيل ؛ ففي هذه المدينة العظيمة كل شيء عظيم ، ولا عجب وهي
كعبة التمدن العصري ، اذ بلغ فيها كل شيء منتهاه
فن المتاحف المهمة غير ما ذكرناه ، متحف كلوني ، وهو يحتوي
على نحو ١٢٠٠ قطعة من الآثار المختلفة ، بينها أكبر ماسة في
فرنسا ، وهي على قدر الجوزة الصغيرة ، وبه عدد عظيم من الأحذية
بينها حذاء المصريين القدماء ، والأحذية المصرية المعروفة الآن .
ومتحف كارنغاليه ، وبه ما يختص بتاريخ باريس من الآثار . ومتحف
الطوبجية . ومتحف جريفين ، وبه الوقائع العصرية والتاريخية ممثلة
بحيث يراها الانسان ، فيتخيل له انه حاضرها لدقة صنعها ، وكمال
اتقانها

وأما محلات اللهو ، فكثيرة جداً ، حتى ان الانسان لو أراد أن
يطوف بها كلها ، لزمه سنة كاملة على الأقل ، ومن بين هذه المحلات
أربعون تياترو لتشخيص الروايات على اختلاف أنواعها ، والحكومة
تدفع مساعدة لأربعة منها ، وهي : الكوميديا الفرنسية ، والابرا

الهزلية ، والاوديون ، والاورا الكبيرة . وهذا التياترو الأخير ، هو
أعظم معهد للتمثيل في العالم . وقد بنى في سنة ١٨٦١ ، ويبلغ
مسطحة ١١٢٣٧ مترًا مربعًا ، أى ما يقرب من ثلاثة أفدنة . وقد
أدخل في عمارته جميع أصناف الرخام المعروف الى اليوم ، وتبلغ
المساعدة السنوية التى تؤديها له الحكومة ٨٠٠٠٠٠٠ فرنك
والكنائس ، وعددها نحو السبعين ، كلها بديعة الشكل ، عالية
الأبراج ، مزخرفة الجدران ، لاسيما كنيسة السيدة العذراء المعروفة
باسم نوتردام ، وكنيسة المادلين ، وهى على مثال هياكل الرومان
ولا تنسَ الحدائق والمتنزهات ، والبساتين والغابات ، فلدريك
منها ما تقرُّ بهِ النواظر كحديقة التويلرى ، وحديقة لوكسمبرج ، وقد
نصبت بها تماثيل مشاهير النساء من الفرنسيات ، وحديقة المرصد ،
وحديقة الحيوانات ، وقد جمع فيها من أنواع الوحوش والطيور ما يظهر
عظمة الخالق ، ويبهر عين المخلوق ، وبها منطاد مثبت فى الأرض
بجبل طويل ، يصعد فيه الإنسان فتظهر له باريس كلها كالعروس
قد ازدانت بأبهى حليها . ثم غابة بولونيا ، وما أدراك ما هى ، مرتع
الغزلان من بنى الإنسان . وروضة يستنشق فيها الباريسيون الهواء
النتى بعد فراغهم من عناء الأعمال ، لرياضة الجسم وإراحة البال . ثم
حديقة النبات ، وبها من أصنافه الغريبة ما لا يدخل تحت حصر ،

وقد أقيم بها متحف للتاريخ الطبيعي ، رأيت فيه هيكلا حوت يبلغ
طوله نحو الخمسة عشر متراً ، ورأيت فيه جماجم كثيرة مرتبة طبقاً
لمذهب دروين ، أى على قاعدة الترقى من القرد الى الزنبي ،
فالصيني ، فالمصري ، فالأوروبي (طبعاً) ، وقد لاحظت ان جماجم
الجنس الأيضا كثيرة التعاريج فى مسطحها ، وأما جماجم الزوج
فتقرب من جماجم القرود ، أى انها ملساء خالية من الخروق ؛ ومع
ذلك فانى لا أعتقد بمذهب دروين ، بل أدعه ومن شاركه فى رأيه
يُنسبون للجد الذى اختاروه . وقد رأيت هيكلين آدميين ، فقرأت
ما كتب عليهما ، فاذا الأول منهما قد كتب عليه محمد أبو المجد
من منفلوط ، وعلى الثانى السيد أبو المجد من منفلوط ، فعجبت
لوجودهما فى هذا المكان ، ولم أقف لهما على سر للآن

ويوجد فى باريس نحو الخمسين سوقاً لبيع البقول واللحوم وغيرها
من لوازم الطعام

والمدينة محصنة تحيط بها الخنادق ، وتحيط بها سبعة عشر قلعة
ضخمة

وأما ضواحيها ، فجميلة وكثيرة العمران ، وأهمها فونتنبلو المشهورة
بقصرها الملوكى ، وغابتها الواسعة ، وفرساي المعروفة فى جميع العالم
بقصرها الفخم ، وحدائقها الغناء

وانى مهما اجتهدت فى الوصف ، وحاولت الإحاطة ولو سطحياً بما حوته هذه العاصمة الكبرى من روائع الآثار ، وثمرات الأفكار ، أرى نفسى مقصراً ، وأحسن شئ أقوله لمن يريد منى زيادة التفصيل ، ولا يرضى إلا بالشرح الطويل ، عليك بالرحيل الى هذه المدينة ، وانظر بنفسك ما اشتملت عليه من النفائس والزخارف ، فمراء كمن سمع

عادات الباريسيين وأهم قسومهم

تجتمع فى الباريسى أخلاق الأمة الفرنسية بأسرها ، فالتكلم على أخلاقه ، هو عبارة عن وصف أخلاق مجموع الأمة الفرنسية اللهم إلا بعض خصوصيات ثانوية ، تمتاز بها بعض الجهات ، مما لا يؤثر فى النظر العام تأثيراً يذكر ؛ وذلك لأنه بسبب سرعة المواصلات ، وانتشار الجرائد والمطبوعات ، صارت العلاقة بين عاصمة الحكومة الفرنسية والأقاليم مستمرة ، والناس فى كل أمة مقلدون فى كل ما يرون أو يسمعون به مما يجرى فى عاصمتهم ، فضلاً عن أن باريس يزداد عدد سكانها فى كل يوم ، ممن يرحلون إليها من القرى والمدن الأخرى ، فتصبغهم بصبغتها الخصوصية ، وتزداد بهم قوة ، حتى قال بعضهم : إن الانكليز يهاجرون الى

الهند، والألمان الى أمريكا، والفرنسيون الى باريس؛ وهذه الأسباب صارت أكثر العواصم ازدحاماً، إذ يبلغ فيها عدد سكان الكيلومتر الواحد المربع ٣١٠٠٠، وهي نسبة عظيمة كما ترى

وأول شيء يستوقف فكر الغريب في باريس، هو كثرة الحركة في الشوارع، وتعدد محلات اللهو والطرب، مما يتخيل معه أن الباريسيين قوم خلقوا للانهماك في اللذات، وتمضية الوقت في التشبب والمغازلة؛ والحقيقة أن أغلب هذه الحركة ناشئة عن كثرة الأجانب، وهذه الملاهي إنما شيدت بأموالهم، وأما الباريسيون الحقيقيون، فينقسمون الى قسمين: فريق أغناه ماله عن العمل فاشتغل باللذة والرياضة، وفريق وقف نفسه على الجهد والاجتهاد، فلا ينقطع عن السعي وراء عيشه، ولا يقعه عنه كسل أو خمول، وهذا الفريق هو الأكثر عدداً، ومع ذلك، فكل يعرف كيف يرتب وقته، قسماً لمعانة الأعمال، وقسماً لراحة البال

والجميع محافظون على القواعد الصحية، والاعتناء بالأعياد المليية، والاحتفالات القومية، لا يفوتهم الحضور لسماع وعظ الواعظ، أو حضور الرواية الجديدة، أو الاختلاف الى معارض الرسم والنحت وغيرها

والأخلاق الغالبة على الباريسي هي: لطف المعاشرة، وخدمة

الإخوان ، وعدم اخفاء ما في الضمير ، والتسامح ، والأدب ، وطلب أسباب الانشراح والسرور ، وحب الفنون الجميلة ، وسهولة التعبير ، والرغبة في التأثير في السامع بانتقاء العبارات ، واختيار الكلمات والفطنة والمجون ظاهراً ، وحب الجد باطناً ، والاعتدال في الأفكار وسرعة الحركات ، ورقة الذوق ، وحب الاطلاع ، والميل الى كل جديد وكرم النفس ، وعدم الحذر ، وضعف الاعتقاد ، ومساعدة كل أمر يستحسنه ، ولكن إيوقة معلوم ، وكثرة القول بلا عمل ، مع ثبات الجأش وقت الحاجة ، واحترام القوانين ، والميل للتعميم ، والالتفات الى مجموع الشيء بقطع النظر عن مفرداته ، والعلم أكثر من العمل ، والثقة بالنفس ، وكثرة الحيل

والباريسي أشد الناس احتراماً للأموال ؛ فإن مرت جنازة من وسط الشارع ، وقفت لها العربات والناس ، ورفع المارون قبعاتهم احتراماً لها ؛ وذلك بعكس ما يشاهده الإنسان في بلادنا ، حيث تقطع العربات صفوف المشيعين بدون أدنى اكتراث ولا مبالاة ؛ وليس الذنب في ذلك على سائقها لأنهم من رعاي الناس ، ولكن على راكبيها وعلى المشيعين الذين يطلقون لها الطريق ، وعلى البوليس الذي لا يلاحظ مثل هذه المخالفات ، ويدخل تحت هذا الاحترام الاعتناء بشأن المقابر ، ونظافة الطرق كما يجد ذلك كل من خرج الى

قرافة الإمام أو غيرها من مقابر القاهرة . والأعجب من ذلك ، أنك
تسمع اكابر القوم وأصاغرهم يتأفزون من هذه الحال في كل مرّة
يشيعون فيها ميتاً من الأموات ، وليس فيهم رجل رشيد يخدم ملته
وبلاده بالسعى وراء عمل اكتاب أو نحوه لإصلاح هذا الخلل وازالة
هذا العار . ومن أراد أن يعلم كيف يحترم الباريسيون أمواتهم
على الوجه المعقول ، فعليه أن يتوجه لإحدى الجبانات في ٢ نوفمبر ،
وهو يوم عيد الأموات ، فيجدهم حضروا لزيارة موتاهم ، ووضعوا على
قبورهم بكل خضوع وخشوع باقات الزهور ، وأكاليل الورد ؛ ثم
ينصرفون بكل سكينه بعد ان يستمطروا على أجدائهم طيب
الرحمة والرضوان من الكريم المنان ؛ فليس هناك أكل ولا شرب ،
ولا تعديد ولا نواح ، ولا بيوت يقطنها الأحياء والأموات ، لأن
المقام مقام عظة واعتبار ، لا مقام مجانة واستهتار

ومما يلاحظه الغريب أيضاً ، احترام الناس للبوليس ، وعدم
مخالفتهم أو امره ، لاعتقادهم انه يفعل ذلك محافظة على النظام ، وسعيًا
وراء راحة الجميع ، وبذلك تنتظم الأمور ، وتقل الأخطار ، ويندر
وقوع الحادثات ؛ ولكن المصري يريد ان لا يخضع لهذه السلطة
الصادرة من مستخدم صغير ، وهما منه بأنها اهانة له ، وما الاهانة
الآ في عدم احترام القوانين ، والانحراف عن القيام بما تقتضيه

الواجبات . نعم لا أنكر ان البوليس في أوروبا قائم بشؤونهِ خيراً
من بوليسنا؛ ولكن ذلك لا يكون سبباً في خرق حرمةهِ، وعدم
الأكترات بما يطلبهُ منا في المصلحة العامة

ومن الأمور التي تدلّ على شدة احترام الأموات المقرون بتمجيد
أعظم الرجال الذين خدموا البلاد، تخصيص البنتيون لدفن كلِّ
فرنسي أفاد بلاده فائدة تُذكر فتشكر، وهو عبارة عن كنيسة
شاهقة البنيان، شيدت في سنة ١٧٦٤، وكتب عليها ما معناه :
هذا ما شاده الوطن شكراً لأبنائه العظام . وهذا المحل موجود في
وسط حي الطلبة أمام مدرسة الحقوق، ليكون درساً لهم يتعلمون
منهُ أن من خدم بلاده لا يضيع عمله ؛ بل يخلد اسمه على وجه
الزمان

ومن قبيل هذه الدروس النافعة، الاحتفال بالأعياد الوطنية التي
لا يقصد منها مجرد الزهو والافتخار، وانما يقصد بها تربية الامة،
وترقية احساسها وعواطفها نحو الوطن، وتذكيرها بما فعل أجدادها
للحصول على الحرّية، وما بذلوه من الأرواح في سبيل استقلال
بلادهم، وإعلاء شأنها، وتأيد كلمتها، فيحمل ذلك أفرادها على
المحافظة على هذه الحرّية والاستقلال، وتلبية داعي الوطنية متى
احتاج ذلك الحال

ومن غريب ما لاحظته أن المصريين أكثر الناس تقليداً للأوروبيين ، ولكنهم لا يقلدونهم إلا في الأمور الضارّة ، أو التي لا تضرّ ولا تنفع ، كتناول المشروبات الروحية ، ولبس البنطلونات الضيقة ، ونحو ذلك ؛ وهم في هذا الباب لا يكتفون بمجرد التقليد ، وإنما يتغالون فيه ؛ ولكن أعينهم غافلة عن تقليد محاسن الأوروبيين من جدّ ونشاطٍ وخدمة للوطن وتمضيّد كل مشروع مفيد ؛ فلا حول ولا قوّة إلا بالله !

والباريسيين اعتناء شديد بتحسين مدينتهم ، حتى تكون دائماً حاملة لواء التمدن ، ورافعة علم الحضارة ؛ ولذلك تبلغ ميزانية البلدية نحو اثني عشر مليوناً من الجنيهات في العام ، وكم من مرّة تأملتُ في شواطئ نهر السين ، وقد أُقيمت عليها الأرصفة الجميلة ، وصارت أشبه شيء بالمتنزهات ، وتمنيت لنيلنا المحبوب أن يعتنى بشواطئه هذا الاعتناء ، فيكون لسكان القاهرة خير نزهة ، وأبهى روضة ؛ ولكن من يقوم بهذه الأعمال الجليلة ونحن عن أخص وأجباتنا غافلون ؛ فاللهم هبنا من لدنك رشداً ، ومن روحك قوة تحي ما مات فينا من الهمة ، انك على كل شيء قدير !

ولا بدع - وباريس على ما قد سمعت - ان يزورها الملوك والأمراء أكثر من كل عاصمة أُخرى . وممن زارها في هذا العصر

من ملوكنا المسلمين، السلطان عبد العزيز، واسماعيل باشا الخديوي
الأسبق، وشاه العجم السابق، رحمهم الله؛ وذلك في سنة ١٨٦٧،
بمناسبة المعرض الذي أُقيم فيها، ثم مولانا العباس، وشاه العجم الحالي
ومما يجدر ذكره، ان الحدائق والمتاحف والمحلات العمومية،
كأبواب مفتحة الأبواب للداخل بدون مقابل، يستوى في التمتع بها
الغنى والفقير، والأمير والحقير؛ وكل كتابة فيها باللغة الفرنسية لغة
البلاد. وأما في مصر، فقد كُتب وأُسفاه على الفقير الحرمان من
غشيان مثل هذه المعاهد، لأنه حينئذ لا بد له من دفع ضريبة،
وإذا دخلها الغنى العاقل، خرج منها بألف حسرة، لأنه يرى الكتابة
الموجودة فيها باللغة الأجنبية التي لا يفهمها في الغالب، كأن المصريين
ليس لهم شأن في كل هذه الأمور، ولا تهمهم معرفة هذه
المعروضات، أو كأن هذه المحلات ليست في مصر الأليئفق عليها
من مال المصريين

ومما يؤخذ على الباريسيين حبهم المفرط لكل جديد، مما يثير
فيهم شيئاً من الطيش والخفة، فمثلاً متى قامت فيهم حكومة من
الحكومات وكان فيها بعض العيوب، فبدلاً من أن يصلحوها،
يسعون في قلبها والاستعاضة عنها بشكل جديد، وربما كان شرّاً من
سابقه؛ ولكنه مستحسن عندهم لأنه جديد؛ ولذلك كانت الحكومة

عندهم مزعزة الأركان ، تلهيها المحافظة على كيانها عن القيام
بجلائل الأعمال ، ومحكم التدابير ، ولكنهم مع ذلك ميالون لنصرة
المظلوم على الظالم ، متشيعون لكل من يطلب الاستقلال . وقد
شاهد منهم مظاهرات عنيفة في سنة ١٨٤٠ ، أثناء الخلاف الذي
شجر بين المرحوم محمد علي باشا والدولة العلية ، كانوا فيه من صف
المصريين

ومما يؤخذ عليهم أيضاً ، عدم ميلهم للزواج الشرعي ، وتغاليهم
في حب الاطلاع الى درجة يستنكفها العقل ، كاستحضارهم قبائل
من عبيد أفريقيا ووضعها بحديقة الحيوانات ، لمشاهدة أخلاقها
وعوائدها ، وهي مكفوفة وراء سياجاتٍ ، تفصل بينها وبين المتفرجين
كأنها وحوش ضارية ، وغير ذلك مما أتت على ذكره . وهم لشدة
اعتقادهم بارتفاع درجة مدنيّتهم وحضارتهم ، تجدهم جاهلين بأحوال
الأمم الأخرى ، ولا سيما الشرقية منها ، وقد حدثت بعض المتعالمين
منهم ، فوجهوا الى أسئلة مختصة بمصر والمصريين ، كلها يشفّ عن
الجهل التام ؛ وما المصري منهم ببعيد ؛ فكيف تكون معرفتهم بمن
هم أبعد منا قراراً ، وأنأى مزاراً ؟

ولكن لا يُنكر عليهم انهم خدموا الانسانية باختراعاتهم
وتأليفهم ، ولسنا ننسى ان باريس كانت في القرن الثامن عشر مركز

هؤلاء الفلاسفة والكتّاب، الذين نادوا بالحرية والاستقلال، فدوى صوتهم في جميع أنحاء الدنيا، فأثار الثورة الفرنسية الكبرى سنة ١٧٨٩، واتقشمت امامه غياهب الجهل، وهدمت من شدة هزيمته معانل الاستبداد، وما هذا بالفخر اليسير

هذا، ولو أراد الانسان ان يذكر المؤتمرات الدولية والسياسية والعامية التي اجتمعت في باريس، لضاق المقام، ولكني أذكر معاهدة واحدة تهمننا نحن العثمانيين، فليس يخاف انه في سنة ١٨٥٦ اجتمع مندوبو الدول في هذه المدينة، وعقدوا المعاهدة التي انتهت بها حرب القرم، وأهم ما جاء بها وبملحقاتها: قبول الدولة العلية ضمن الدول العظام، وضمانة الدول لاستقلالها والمحافظة على أملاكها، ومنع روسيا من التداخل في شؤونها الداخلية، وحرمانها من بعض الأقاليم التي كانت احتلتها على نهر الطونة، وتعطيل دور الصناعات (الترسانات) الحربية التي كانت لها على البحر الأسود، وفتح هذا البحر لتجارة جميع الدول، وجعله في المنطقة التي تكون دائماً تحت الحياد، وجعل الملاحة حرة في نهر الطونة، وغير ذلك من المسائل التي لم تحترم منها فيما بعد إلا ما كان جارياً في فائدتها، عائداً بالمنفعة عليها؛ وهذا شأنها الآن في كل معاهدة غير مكفولة بقوة تنفيذها

والكلام على باريس والباريسيين كثير يستغرق المجلدات ،
وحسبنا بهذا القدر ، ففيه غناء وكفاية والسلام

المؤتمرات الدولية

ورد علىّ في صيف هذا العام عدة دعوات للحضور في كثير
من المؤتمرات العلمية والقانونية، التي اجتمعت في باريس أثناء المعرض،
فاعتذرت الى أغلبها، وقبلت دعوة ثلاثة منها، وهي: مؤتمر المقارنة بين
القوانين والشرائع ، ومؤتمر الاعمال الخيرية ، ومؤتمر رعاية المحكوم
عليهم في سجنهم ، وبعد الافراج عنهم ؛ ولم أوفق الأ لحضور هذا
المؤتمر الأخير، فحضرتُ جلساته كلها ، وبعد ذلك اعتلت صحتي
واعتراني التعب ، فاضطرتُ الى مبارحة باريس ، والإقامة بفيشي
للانتفاع بمياهها المعدنية ؛ ولذلك فإني أخلص هنا أعمال المؤتمر الذي
حضرتُه بنفسى ، وان كنت اشتركتُ في غيره بواسطة المكاتبه
وفي هذا المقام أذكر أولاً الغرض من هذا المؤتمر ، ثم نظامه ،
فالقرارات التي تمّ الاتفاق عليها فيه :

علّمَ الغربيون قوّة الاجتماع ، وعرفوا كيف يستفيدون منه ،
فألّفوا الشركات التجارية والمالية ، وعقدوا الجمعيات العلمية والأدبية ؛
لأن ما تقدر عليه الجماعة، قد يعجز عن ادراكه الفرد مهما كانت قوّة

وادراكه ؛ ولذلك استعملوا هذه القوة الهائلة (قوة الاجتماع) في كل أعمالهم الخيرية والديوية. ولما كان كثير من المحكوم عليهم جديرين بالرأفة والحنان ، وأهلاً للمعونة والعناية ، وقد يكون بينهم من ساقته الظروف الى ارتكاب الجرائم فاتقاد لها طائماً ، وبعد ذلك ندم على ما فرط منه، وعزم على عدم العودة الى ما وقع فيه ؛ ومن تلبس بالجناية مضطراً لا مختاراً أو من صغرت سنه، ولم يجد من التربية ما يوقفه عند حد الاعتدال ؛ كما يكون بينهم نساء ضعاف ، وشيوخ ذهبت الأيام بحولهم وقوتهم — تألفت في كل البلاد المدنة جمعيات سميت بجمعيات حماية المحكوم عليهم ، الغرض منها زيارة المحبوسين في سجونهم، وتشجيعهم على تحمل مصيبتهم بقلب كله ندم على ما فات، وتصميم على حسن السير في المستقبل . ثم اذا خرج المسجون من سجنه، ورأته الجمعية أهلاً للعناية ، مدته بالنقد حتى يجد له عملاً يعمله ، صوتاً له من السقوط في زمرة الاشقياء ، وساعدته على الالتحاق بأحد المعامل إجابة لداعى الاخوة ، والرابطة الانسانية ، وعامل الشفقة التي تجذب القلوب نحو من خائنه الدهر، فسقط في هاوية الجريمة ، وسعيًا وراء حماية الهيئة الاجتماعية من كثرة عدد المجرمين العائدين ، وهم شر الناس ، وأكثرهم ضرراً عليها رأيت هذه الجمعيات المتفرقة ان تعقد مؤتمراً عاماً، تشترك فيه

جميع الدول ، ويدور فيه البحث في المسائل المهمة بين أعضائها
المختلفي الجنس ، المتحدى المشرب ، ليستفيد كل من تجربة أخيه ،
وتكون قرارات المؤتمر كمبراس تستضيء به الأمم ، وتسترشد بنوره
الحكومات عند ما تسن القوانين أو اللوائح التي تدخل في هذا
الموضوع

تألفت لجنة لهذه الغاية في باريس بعون من الحكومة ،
ووضعت النظام الأساسي للمؤتمر ، ودعت الحكومات رسمياً
للاشتراك فيه ، ودعت أيضاً من كل بلد من عرف اسمها ، وتوسّمت
أن حضوره يفيدها بعض الفائدة ، فلبت طلبها كل الحكومات
الأوروبية والأميركية ، وأرسلت مندوبين من أعظم رجالها ، بين
وزراء وأعضاء برلمان ومستشارين ، ولي طلبها أيضاً كثير من أهل
العالم ، والمشتغلين بالمسائل القانونية ؛ لا فرق في ذلك بين الرجال
والسيدات ، واشترك في المؤتمر وزراء الحكومة الفرنسية ،
ورؤساء مجالسها النيابية ، وأعظم علمائها وموظفيها . وأما الحكومات
الشرقية فلم يشترك منها فيه سوى اليابان ؛ فانها أرسلت ثلاثة من
أكابر قومها . وكنت أنا المسلم الوحيد بين هؤلاء الأعضاء الذين
جمعوا بين سمو المعارف ، وعلو المرتبة ، كما كنت أصغرهم سنّاً . واني
أحمد الله الذي وفقني فتكلمت عدة مرّات أثناء المناقشات ،

وأبدت آراء نالت استحساناً من جمهور الحاضرين . وأول مرّة تكلمت فيها بعث رئيس المؤتمر سكرتيره ، فأخذ منى بطاقة باسمي ، وقال لي بعد ذلك : « انى أشكرك كثيراً على ما قلت وعلى اشتراكك معنا فى المناقشة ، وقد راقى منك أيضاً انك تحسن الفرنسية كثيراً ، وقد سررنا لاستماعك »

وأما كيفية نظام المؤتمر ، فقد انقسم أعضاؤه الى ثلاث لجان : الأولى للبحث فى المسائل المختصة بالرجال ، والثانية للمسائل المختصة بالنساء ، والثالثة للمسائل المختصة بالأطفال . وكانت هذه اللجان تجتمع فى كل يوم من الصباح الى الظهر ، فيتلو عليها العضو المقرر المسائل الواجب بحثها ، ويلخص الأقوال التى وردت بشأنها ، والتقارير التى كتبت عنها من أعضاء المؤتمر ، ويعرض عليها قراراً بما يراه . وبعد ذلك يفتح باب المناقشة ، فيبدى كل ما عنده حتى يتم الرأى على نص يكون هو قرار اللجنة . فاذا كان بعد الظهر ، انضمت هذه اللجان الى بعضها ، وتكوّن منها المؤتمر ، وعرضت عليه قرارات اللجان ، فيقبلها أو يعدلها على حكم ما ترى الأغلبية ؛ ويكون هذا النص هو المعتبر وهو رأى المؤتمر ، فاذا فرغ المؤتمر من كل المسائل ، دوّنت أعماله فى مجلد ضخّم ، وأرسل لكل عضو بنسخة منه ، مشتملة على أقواله وأقوال غيره

ومما يدل على اعتناء القوم وحسن ترتيبهم، أنهم لا يطبعون أقوال عضو إلا بعد أن يصدق عليها؛ فقد أرسلوا اليّ أخيراً صورة من الأقوال التي قلتها لأصلح الغلط المطبعي الذي وقع فيها، فوجدت أقوالى هي هي، كما تلفظت بها حرفاً بحرف، لأنى بينما كنت أتكلم كانت تؤخذ كلمة كلمة بواسطة الكتابة المختزلة. وقد يتراعى الإنسان منافع القضية، فاذا أراد أن يراجع ما أثبتته كاتب الجلسة من المرافعة صعب عليه فهم ما سطره على صفحات محضره، وربما تعذر عليه الوقوف على معنى هذه الألفاظ والمعانيات، ولله في خلقه شؤون

كان يوم الأحد ٨ يوليو هو اليوم المحدود لافتتاح المؤتمر؛ ولذلك قصد في صباحه الأعضاء الى زيارة المعروضات المتعلقة به، وقد أعدت لهم لجنة الإدارة من يشرحها لهم، ويوقفهم على أسرارها؛ وأغلبها عبارة عن قوانين وألواح واحصائيات عن الجمعيات المشتغلة بحماية المحكوم عليهم، بحيث ان المطلع عليها يعلم كيفية نظام هذه الجمعيات، وما هي الخدم التي قامت بها. وقد كنت أظن ان التمدن الأوروبي مادياً محضاً؛ ولكنى تلقاء ما رأيت في هذه المعروضات من الاشتغال بمساعدة المصابين، وتخفيف ويلات المحرويين، لا يسعنى إلا الاعتراف بأن القوم تركوا في قلوبهم مكاناً عظيماً للاحساسات الشريفة، والعواطف السامية، وان يكن من

رأيت وبن خالطت، هم من نخبة القوم وأقومهم أخلاقاً؛ ومثل هؤلاء في كل أمة قليلو العدد، نادرو الوجود وما أذفت الساعة الرابعة بعد الظهر، الأ واحتشد الخلق واشتد الزحام في سراى المؤتمرات، وهي عبارة عن قصر جميل، شديد داخل المعرض لاجتماع الجمعيات العلمية فيه. وكان أعضاء المؤتمر يدخلون من أبواب المعرض دون أداء رسم، وذلك من الامتيازات التي منحها الحكومة للمؤتمرات

ولما انتظم عقد الاجتماع، قام وزير الحفانية نائباً عن رئيس الوزارة، وافتتح المؤتمر رسمياً. ثم قام أحد أعضاء مجلس الشيوخ، وذكر تاريخ جمعيات حماية المحكوم عليهم، وتكلم عن الخدم التي تقوم بها هذه الجمعيات، وكيف أنها بعملها تنفع الهيئة الاجتماعية، وتقوم بواجب إنساني؛ ثم شكر للوزراء والنواب والمندوبين والعلماء الذين أتوا من كل ناحية، للتكاتف على فعل الخير وخدمة العلم؛ وعرض على المؤتمر أن يعين رئيساً لإدارة أعماله الموسيو پتى أقدم قضاة محكمة النقض والابرام الباريسية، فوافق الجميع على ذلك، وقام هذا الرئيس فشكر الأعضاء على انتخابه، وأخذ يسرد بعبارات فصيحة، حالة جمعيات حماية المحكوم عليهم في جميع أقطار الأرض، وكيف أن هذه الحركة امتدت في السنين الأخيرة بفضل اتفاق

الحكومات مع الافراد . ثم قام من بعده وزير الحقانية وقال :
« ان الحكومة تقدر مؤتمر اليوم حق قدره ، وتنتظر من ورائه
الفوائد الجمة ؛ فحماية المحكوم عليه تبعث عليها الشفقة التي جبل عليها
الإنسان ، وقد كانت سبباً لتعديلات كثيرة في قوانين العقوبات ،
كان من أثرها قلة العائدين للجريمة »

وبعد أن تكلم عن الطرق التي تم بها هذه الحماية ، وذكر
أن الحكومة يجب عليها أن تترك الحرية المطلقة لمن يخصصون
أنفسهم لهذه الخدمة الجليلة ، ختم قوله بهذه الجملة التي فاه بها رئيس
الجمهورية في حفلة افتتاح المعرض : « أيها السادة ، إن العدل يقتضئ
من الجاني ، ولكنكم تمثلون الشفقة التي تدركه ، ولذلك فاني أرحب
بعملكم المبني على الإخلاص والرحمة »

وفي الساعة الخامسة ونصف مساءً ، خرجنا من قصر المؤتمرات
الى المطعم أمامه ، فتناول كل منا ما لذ له وطاب ، من طعام وشراب
على نفقة المؤتمر ، وانصرفنا على أن نعود ثانی يوم للمناقشة في
الموضوعات المطروحة علينا . وقد تناولت هذه المناقشات نحو الأربعة
الأيام . ولا يمكنني أن أذكرها هنا ، حتى ولا باختصار ، لأنها
تستغرق المجلد بل المجلدات ، وإنما أذكر نتائجها وهي القرارات
التي وقع عليها الاتفاق

وفي يوم الثلاثاء ١٠ يوليو، بعد ان اتهمنا من العمل، سار بنا
وابور مخصوص في نهر السين، من قصر المؤتمرات الى سراى المحافظة،
وهناك استقبلنا المجلس البلدى بكل جفاوة واکرام، وبعد تبادل
الخطب وتناول المرطبات، زرنا السراى جميعها، فوجدنا فيها من
النفايس ودقيق الصناعة، ما هو جدير بمحافظة باريس. وقد صادف
عند خروجنا من المحافظة، ان دخل الوفد البويرى اليها من باب
آخر، فظن الجمهور المتربص أمام السراى اننا هو، فهتف يحمينا
من كل جهة وبكل لسان؛ ولكنه بعد ذلك تبين اننا وفد علم
وسلام، لا وفد حرب وخصام.

وقد دعى رئيس الجمهورية أعضاء المؤتمر لمقابلته، فلقوا منه كل
انس ولطف، كما دعى وزير العدلية رجال القضاء من أعضاء المؤتمر
في ليلة أعدھا لهم، كانت كلها صفاء وهناء، وقد أصدر الأوامر لجميع
السجون والمحلات العمومية ان تكون مفتحة الأبواب في وجه
أعضاء المؤتمر، يدخلونها كيف شاؤوا، متى أبرزوا التذكرة الدالة
على اشتراكهم في المؤتمر.

وفي يوم الخميس ١٢ يوليو، ركبنا نهر السين على وابور مخصوص،
رفعت عليه أعلام الدول المشتركة في المؤتمر، وبينها علم طرت لرؤيته
سروراً، عندما رأيت النجمة والهلال يتألقان في وسطه، وشكرت

رئيس المؤتمر على حسن عنايته بي ، ووضعه علم بلادى بين تلك
الأعلام ، مع انى لم اكن مندوباً رسمياً

وبعد أن تناولنا الغداء على ظهر الوابور ، وصلنا بلدة مُنتوشون ،
وشاهدنا إصلاحية الأحداث الموجودة فيها ، حيث قابلنا رئيس
المجلس البلدى ، واحتفى بنا ، وعفا عن كل مسجون استحق العقاب
التأديبى يومها اكراماً لزيارتنا . ثم سرنا حتى وصلنا الى مدينة ناندير ،
وهناك قابلنا مدير باريس ، فزرنا معه السجن العمومى هناك ، وهو
على ثلاثة أقسام : قسم للرجال ، وقسم للنساء ، وقسم للشيوخ الذين
ضبطوا وهم يسألون الناس فى الطرقات . وقد رأيت من نظام هذه
الإصلاحية وهذا السجن ، ما وقفت له باهتاً من نظافة ، وحسن
ترتيب ، وكمال استعداد ، مما يضيق المقام عن ذكره ، ويتمنى الإنسان
معه أن يرى فى بلاده مثل هذا النظام :

وقد أتم المؤتمر أعماله فى يوم الجمعة ١٣ يوليو ، وفى هذه الجلسة
قام الرئيس فشكر اعضاء المؤتمر على أعمالهم ، ولا سيما الأجانب
منهم ، الذين تكلفوا مشقة الأسفار ، للاشتراك فى هذا العمل
الخيرى الجليل . ثم قام من بعده بعض اعضاء المؤتمر ، وأنا من
ضمنهم ، فشكرنا الرئيس على الكفاءة التى أدار بها الأعمال ، وعلى
حسن تعطفه ومعاملته لنا نحن الأجانب ، مما أطلق ألسنتنا بالثناء

عليه ؛ وعلى ذلك أقفل المؤتمر

وفي مساء هذا اليوم ، اجتمع الأعضاء في المطعم الصيني بغابة
بولونيا ، وتناولوا طعام العشاء ، وتبادلوا خطب الوداد والصدقة ،
وانصرف الكل مسرورين مما رأوا وسمعوا وفعّلوا

وكان هذا المؤتمر سبباً في تعرّفى بكثير من الأفاضل والعلماء ؛
وما كاد يختم جلساته ، الأ وهطت على الدعوات للاشتراك في
مؤتمرات أخرى ، ودعاني ناظر المعارف لحضور تمثيل احدى
الروايات في الاوبرا الكبرى ، ودعنتى بلدية باريس للحضور في
احتفال عيد الآداب والمطبوعات ، ومدرسة الحقوق بمناسبة توزيع
جوائزها ، فأجبت البعض ، واعتذرت للبعض ، وحمدت المولى الذى
ثبت قدمى في كل الأماكن التى وُجدت فيها ، حتى لا يقال ان
المصرى غير قادر على مجارة غيره في طرق المدنية والحضارة ؛ وما
ذكرت هذه التفاصيل في رسالتى ، إلا لأبرهن لاخوانى وأبناء
جنسى ، اننا متى أردنا واجتهدنا ، وصلنا للغاية التى نريدها ، واننا بما
وهبنا الله تعالى لا نخشى ان نجارى غيرنا متى عقدنا العزيمة ، وثبتنا
في طريق التقدم والفلاح

قرارات مؤتمر حماية المحكوم عليهم

الباب الأول - القرارات المختصة بالأحداث

المسألة الأولى

في الحق المخول للأهل في تأديب أولادهم ، وفي الطرق المستعملة لذلك
عند الأمم المختلفة

يجب إلغاء الحق المخول للأهل في طلب حبس أولادهم
يدخل ضمن واجب التربية الذي على الأهل للأولاد حق
تعيين محل إقامة الولد ، وإلزامه بعدم مباحرة المدرسة ، أو دار التعليم
التي اختاروها له

يجب على الجهة القضائية ان تساعد الأهل على واجباتهم ،
وعليها - متى طلب منها - ان تجرى تحقيقاً ، وتوقع الجزاءات
التأديبية ، التي ترى حاجة لتوقيعها

المسألة الثانية

في حماية أحداث الاجانب ، وفي التنفيذ الدولي للاحكام الصادرة بشأنهم
ان المؤتمر يدعو الجمعيات الى الاتفاق على كيفية حماية أولاد
الاجانب المحكوم عليهم ، أو الذين يوجدون في حالة خطر أدبي ،
لا سيما بواسطة ارجاعهم الى بلادهم الأصلية

يجب أن تشمل القوانين المختصة بنزع السلطة الأبوية من الأهل المقصرين في تربية أولادهم جميع القصر، وطنيين كانوا أو أجانب ان المؤتمر يلتمس من الدول أن تسنّ قوانين مماثلة للقانون الفرنسي، المتعلق بنزع السلطة الأبوية من الأهل غير الأكفاء، وأن تتفق مؤقتاً على إشعار بعضها البعض بالأحكام التي تصدر من كلٍ منهم على رعايا الأخرى من هذا القبيل، بحيث اذا صدر حكم بنزع السلطة الأبوية من أحد الآباء لأنه غير أهل لها، وجب على الحكومة التي أصدرت محاكمها الحكم، أن تعلن به الدولة التي ينتمى اليها المحكوم عليه، حتى تتخذ الاجراءات القضائية التي تجعل هذا الحكم نافذ الأثر في بلادها

ان المؤتمر يدعو الدول الى أن تختصر المدّة التي يمكن للقاصر المفرج عنه أن ينال بعدها العفو التام، حتى يتمكن من الحصول على هذا العفو قبل الانتظام في سلك الجندية؛ ويرجو مؤقتاً وزراء الحرية في كل أمة، انهم عند ما يتحققون من حسن سيرة القاصر السابق الحكم عليه، يأمرؤن بإلحاقه بالفرق الاعتيادية للجيش، ولا يلحقونه بالفرقة الاصلاحية

المسألة الثالثة

في إيقاف تنفيذ العقوبات التأديبية ، في الإصلاحات الممدة للاحداث

يجب التوسع في إيقاف تنفيذ العقوبات التأديبية التي تصدر على أحداث الإصلاحات ، بحيث لا تنفذ عليهم إلا إذا عادوا لارتكاب ذنب جديد في زمنٍ معينٍ

الباب الثاني - في القرارات المختصة بالنساء

المسألة الأولى

ما هي الوظائف التي يمكن للسيدات القيام بها في السجون والإصلاحات ، سواء كان ذلك من جهة الإدارة أو من جهة الحماية ؟

يجب في المحلات المعدة لسجن النساء خاصة أن لا تُحرم السيدات قطعياً من إدارتها أو التوظيف فيها ؛ وإنما بُراعى في ذلك عادات وقوانين كل بلد

ولامانع من تكليف الطبيبات بكل ما يتعلق بالقواعد الصحية في تلك المحلات ، ومداواة المسجونات

يجب أن يكون نقل النساء من سجن الى سجن ، أو من بلد الى بلد ، بمعرفة السيدات

يجب أن تكون السجون مفتحة الأبواب لدخول السيدات

اللواتي يشتغلن برعاية المسجونين
هذه الرعاية يُشترط أن يكون الغرض منها : أولاً ، تشجيع
المحكوم عليهن وتهذيب أخلاقهن . ثانياً ، إعداد ما يلزم لهن عند
الإفراج عنهن ، وانتظامهن من جديد في عداد الهيئة الاجتماعية
وللاوصول الى هذه الغاية لا بدّ من الاتفاق التام بين مستخدمي
السجن وزائريه من أعضاء جمعيات الحماية

المسألة الثانية

ما هي الأهمية الواجب اعطاؤها للملاجئ المؤقتة التي يلجأ اليها المحكوم
عليهن عند الافراج عنهن ، وهل لم يكن خيراً لهن - متى أمكن -
أن يبحث لهن قبل خروجهن من السجن عن محل يشتغلن
فيه مباشرة متى انتهت مدة العقوبة ؟

رأى المؤتمر

أولاً - أنه لا بد من إقامة المفرج عنها ولو بعض أيام في
الملجأ المؤقت ، لنتمكن الجمعية التي تحميها من تعريف من
سيستخدمها بها ، أو من عمل طريقة لتصلحها مع أهلها
ثانياً - ان الإقانة في الملجأ المؤقت على كل حال تفيد المحكوم
عليها مادياً وأديباً ؛ إذ تقوم أخلاقها ، وتساعد على إصلاح حالها ،
فلا تعود لارتكاب الجرائم والآثام . ويشترط في هذه الملاجئ أن
تكون مرتبة بكيفية تسمح بعزل المقيمين فيها ليلاً عن بعضهم

المسألة الثالثة

في الاتفاق الواجب ابرامه بين البلاد المتاخمة لبعضها ، لتسهيل رجوع المفرج عنهم
المأمورات بالخروج الى بلادهم ، وفي حماية أطفالهن

أولاً - يجب على اللجان المركزية المزمع تشكيلها - بناءً على
البند الرابع من المسألة الثالثة الواردة في الباب الثالث من هذه
القرارات - أن تعين الوكلاء الكافين في كل جهة ، ليحيطوها
علمًا بالأحوال التي تبعد فيها النسوة عن البلاد بعد الإفراج عنهن
حتى تتخذن الاجراءات اللازمة ، بحيث اذا وصلت المفرج عنها الى
الحدود ، وجدت هي اولادها من قبل أهلها ، أو من قبل الجمعيات
من يساعدها ويحميها ، ويسهل لها السفر الى حيث تريد

ثانياً - يجب أن تعرف الحكومة لهؤلاء الوكلاء صفة شبيهة
بالرسمية ، حتى يمكنهم القيام بما عهد اليهم

ثالثاً - تلتصق اعلانات في السجون يعلم منها المسجونون ، ولا
سيما النساء اللواتي ستطردهن الحكومة بعد الإفراج عنهن من
بلادها ، أنه يمكنهن مخابرة اللجان المركزية السابقة الذكر ، حتى
يجدن عند بلوغهن الحدود من يعولهن ويحمين

رابعاً - اذا توسطت احدى الجمعيات في ارجاع مطرودة الى
بلدها ، فلها أن تتولى نقل اولادها القصر اليها

خامساً - يجب إبرام معاهدة دولية لمنع الصعوبات الناشئة في هذه الحال الأخيرة من الاتفاقيات المعمول بها اليوم ، والتي تمنع الجمعيات من القيام بما يجب عليها

سادساً - قد تتوسط الجمعيات بين المطرودة والحكومة في عدم تنفيذ قرار الطرد؛ وقد يكون هذا التوسط مبنياً على أن المطرودة اكتسبت جنسية البلد الذي قرّر طردها ؛ ولذلك يحسن تأليف كتاب مشتمل على كل ما يتعلق بأحكام الجنسية في جميع قوانين الأمم ليتسنى للجمعيات معرفتها

الباب الثالث - القرارات المختصة بالرجال

المسألة الأولى

ما هي الطرق الواجب على الجمعيات اتباعها قبل انتهاء مدة عقوبة المحكوم عليهم لتسهيل الخاقم بوجوه الاعمال بعد خروجهم ، وانتظامهم في سلك الهيئة الاجتماعية ؟

أولاً - يجب أن يصرح للجمعيات بمقابلة المحبوسين احتياطياً بعد الحصول على اذن من المراجع القضائية ، ويجب أن تشعر هذه الجمعيات باسم كل شخص قبض عليه ، حتى يتسنى لها القيام بعملها

ثانياً - يجب على هذه الجمعيات أن تيين للمسجون الطرق التي يمكنه سلوكها بعد الافراج عنه ، من وضعه في محل يشتغل فيه ،

أو إقامته في ملجأ ، أو انتظامه في سلك الجيش ، أو مهاجرته الى بلد آخر تكون سبل المعيشة متوفرة فيه

ثالثاً - يجب أيضاً عليها أن تحضر الأوراق اللازمة لانتظام المحكوم عليه في سلك الجنديّة ، أو رحيله لبلده ، أو مهاجرته لبلد آخر ؛ ويكون ذلك قبل خروجه من السجن

رابعاً - يجب أيضاً عليها أن تسعى في الاصلاح بين المحكوم عليهم وأهلهم ، وان تنصح لهؤلاء بأن يمدوا أهلهم بشيء مما يكسبونه

خامساً - يجب أيضاً عليها أن ترسل الى السجن من يستلم المفرج عنه ، والمبالغ التي تجمدت باسمه من عمله وهو مسجون

سادساً - يجب أيضاً عليها أن يكون لها علاقة مستمرة مع المقاولين وشركات العمل والاستخدام ، ليسهل عليها ايجاد المحلات اللازمة للمفرج عنهم عند خروجهم ، كما تستدعيه أميالهم واستعدادهم الشخصي ؛ واذا امكن للمفرج عنه أن يتزود بالتعليمات التي تعطى لها الجمعية ، ويبحث هو نفسه عن المحل الذي يليق به كان ذلك أولى

سابعاً - يجب أيضاً عليها أن تتخذ الاحتياطات الكلي في اختيار المحلات التي توضع فيها من تحميمهم ؛ وعلى هذا تكون المدة التي يقيمون فيها داخل الملجاء التابع لها مفيدة جداً لمعرفة أخلاقهم واستعدادهم الشخصي

ثامناً — اذا لم يكن للجمعية ملجأ خاص بها ، فلها أن تعقد اتفاقاً مع جمعية أخرى خيرية ، يكون لها ملجأ يشتغل من به في عمل من الأعمال ، تشتط فيه قبول من ترسله من المفرج عنهم يعملون به حتى تجد لهم محلاً آخر

المسألة الثانية

ما هي المبادئ التي يجب اتباعها في نظام التربية والتعليم داخل السجون والاصلاحيات ؟

يجب أن يكون التعليم مشتملاً على قسم عظيم من أنواع الرسم اللازم للصناعة ، وعلى معلومات عمومية تنفع العملة على اختلاف مهنتهم ، وعلى دروس يقصد بها اصلاح حالهم ، وتكون دائرة على ما يأتي :

- ١ — احترام الواجبات ، ولزوم الرابطة الاجتماعية
 - ٢ — تغلب العقل على الشهوات واللذات ولا سيما المسكرات
 - ٣ — التعليم الابتدائي لا سيما الخط والقراءة والحساب
 - ٤ — يكون التعليم افرادياً أو عمومياً كما تستدعيه الظروف
 - ٥ — مناظرات وشروح تجرى على أيدي أشخاص خارجين
- عن هيئة المصلحة

ولكي يكون عمال السجون على بينة من الأمر ، فيساعدون

على اتمامه بما عهد فيهم من حب الخير ، يجب أن يرسل لهم ملخص
هذه القرارات

يجب أن تكون نتيجة عمل المسجونين تعليمهم صناعة
مخصوصة جديدة ، أو اتقان صناعاتهم التي كانوا يشتغلون فيها من
قبل ؛ ويراعى في ذلك الاستعداد الشخصى لكل مسجون مع
ملاحظة منشئه ، ان كان من ارباب المدن أو من سكان الارياف
ويجب تطبيق القاعدة بصفة أدق على النساء

إذا وجدت موانع ادارية أو مالية لعدم مراعاة ما تقدم ، فيجب
على الأقل تخصيص بضع ساعات في كل يوم ، ليشغل بها كل
بمهنته الخصوصية ، ولو خارج السجن بقدر ما تسمح به الحالة
ان المؤتمر يرى أن التعليم الدينى لا بُدَّ منه ، وأنه يجب على
الحكومة أن تُسهِّلَ على أئمة الدين أداء وظائفهم الدينية داخل
السجون المخصَّصة للمحكوم عليهم بِمُدَدٍ طويلةٍ أو غيرهم
في السجون المخصَّصة للمحكوم عليهم بِمُدَدٍ قصيرةٍ ، يجب
أيضاً تعليم الصناعات بقدر ما تسمح به حالة هذه السجون ، والمُدَد
المحكوم بها على المسجونين

المسألة الثالثة

في الاتفاق الواجب ابرامه بين الجمعيات المشتغلة بحماية المحكوم عليهم فيما يختص بتوزيع المصروفات التي يستدعيها نقل مواطنيها توزيعاً عادلاً ، وفي الخدمة التي يمكن أن تقوم بها في هذا الموضوع اللجنة الدائمة الدولية لجمعيات الحماية

أولاً - يجب على الجمعيات أن تتفق فيما بينها ؛ بصفة ودية على توزيع المصروفات التي يستدعيها نقل المحكوم عليه الأجنبي الفقير الى بلده ، وذلك في كل حالة على حدة

ثانياً - اذا كانت هذه الأحوال مما يكثر وقوعها بين جمعيتين مختلفتي الجنسية ، وجب عليهما عقد اتفاق عام يسرى في جميع الأحوال ، ويراعى في التخصيص ايراد كل منهما ، والعدد النسبي للأشخاص الذين تحملانهم

ثالثاً - يجب على اللجنة الدائمة ان تحرر في أول كل عام كشفاً باسماء الجمعيات ، وترسل لكل واحدة صورة منه ، كي يتسنى لمن المخاطبة في الأحوال التي تستدعي ذلك

رابعاً - يحسن كثيراً ان تألف في كل بلد لجنة مركزية ، لنقل المحكوم عليهم الأجانب عند الافراج عنهم ، وان تحمي مواطنيها الذين حكم عليهم وطردهوا من البلاد الأجنبية

خامساً - يجب على هذه اللجان المركزية أن تتفق فيما بينها على كيفية العمل ، وان توسع في نطاق الحماية ما أمكنها

سادساً — ان المؤتمر يلتبس من الحكومات ان تنقل الاجانب
التي تطردهم من بلادها، بكيفية تسهل على الجمعيات حمايتهم
والاعتناء بشأنهم

معرض باريس العام

لبثت في باريس من ٣٠ يونيو الى ٢٤ يوليو سنة ١٩٠٠، اختلف
كل يوم الى ساحة المعرض، فأطوى فيها الساعات الطوال، في تصفح
ما أخرج اليها العلم من كل عجيبة، ولست أنسى إلا عند ما يدركني
التعب، وتعمدّر رجلاي على اجابة داعي النفس الميالة الى التزهد
من الاستفادة والاطلاع. على اني مع كل هذا لم أتمكن من
تصفح كل ما نشر في المعرض؛ بل اكتفيت بالنظرة العامة في جملة
الأشياء؛ ولولا ذلك لاحتاج الأمر الى تناول الأسابيع بل الشهور
للإحاطة بما مررت به مروراً، والوقوف على أسرار ما جمع في المعرض
من رائع الصناعة، وبارع الاختراع، وليس ذلك في قدرتي
وليستيقن القارئ من صحة هذا الكلام، أقول اني وأحد
الاخوان الفضلاء، عمدنا ذات يوم الى زيارة أحد القصور المشيدة
في ميدان الانقلاب، وهو المخصص للأثاث والحلي ونحوها، فقضينا
فيه يوماً كاملاً حتى حسبنا أننا لم ندع فيه صغيرة ولا كبيرة إلا

أحصيناها، حتى اذا جزنا فيه من القسم النمساوى بمحل تباع فيه الأحجار الكريمة، اتفقنا على أن نعاود كرة أخرى قبل مبارحتنا باريس لابتياح شئ منها، فلما رجعنا درنا فى طلب هذا المحل ثلاث ساعات فلم نعث عليه، وكنا نجد أثناء مسيرنا غرقاً كثيرة لم تقع أعيننا عليها أول مرّة فتأمل. وهذا قصر واحد، والمعرض تقع مساحته فى مائة هكتار، وفيه العشرات من أمثال ذلك القصر،
دع ما دونه من الأبنية التى لا تبلغ هذا الموضع من الأهمية

وهو يمتد على شاطئ نهر السين ويوصل بين شطريه جملة كبارى أهمها كبرى اسكندر الثانى الذى أسسه الفرنسيون بمناسبة تحالفهم مع روسيا، وتأنقوا فيه حتى صار أجمل قنطرة فى العالم على ما أظن، فعلى الضفة اليمنى، تجد السرايات المعدة للرسوم والنقوش، يليها شارع باريس القديمة، فسراى المؤتمرات، فعارض المستعمرات، والمعرض المصرى، فسراى التروكادرو. وعلى الضفة اليسرى من النهر، تجد القصور التى شيّدت فى ميدان الأنفليد لعرض أثاث المنازل وما يتعلق بالحلى والزينة، فشارع الأمم، وفيه أُقيمت معارض الدول، فقصر الصحة، فالحرب، فالغابات والأحراش، ثم ميدان مارس أو اله الحرب، وبه برج ايفل الشهير، نحيط به القصور التى أعدت لما يختص بالتعليم، فألات النقل، فالمطابع

ونحوها، ثم الماكينات، وخلفها سراى الزراعة، يتقدمها سراى الكهربية، وقصر الماء، وعلى يمينها سراى المنسوجات، يتخلل كل ذلك المطاعم والقهوات ومحلات اللهو والطرب

وانى لا أتعرض لوصف هذه الأماكن بالتفصيل، لأن وصفها يستغرق المجلدات؛ وحسبك برهاناً على ذلك ان بعض الدول طبعت فهرساً مفصلاً لمعرضاتها فى عشرات من الأجزاء، فقس على ذلك ما يستلزمه وصف المعرض كله من مئات من المجلدات، وعندى ان شخصاً واحداً لا يمكنه وصف جميع ما يقع فى المعرض، مهما كانت قوته ومعارفه، ولا يقوم بهذا العمل الأجمعية يدخل فيها الكاتب، والأثري، والمهندس، والطبيب، وهلمَّ جرّاء، حتى يتسنى لها وصفه وصفاً مفيداً، اللهمَّ إلا اذا كان الغرض هو الحصول على فكرة عامة منه، وقد سبقنى الى ذلك كثير من كتابنا الأفاضل والزائر للمعرض، يختلف تأثره باختلاف الوجهة التى صوّب اليها فكره؛ ولما كنت ممن يتأثرون بالمعنويات أكثر من الماديات، كنت دائماً موجهاً نظري الى المقارنة بين أحوال الأمم وبعضها، متأملاً فيما يطوف بهذه القصور والعمارات من المقاصد التى أوجدتها، وكنت أجرد منها روحاً تناجيني وأناجيتها، وأعرض عليها ما يعنى لى من الاسئلة فتجيبني عنها بأوضح العبارات

ولما انتهيت من شهود المعرض ، عمدت الى العجلة الكبيرة وهي عبارة عن دائرة عظيمة ، معلق بها صناديق أشبه بعربات السكة الحديد ، إلا انها أصغر منها تدار بمحرك البخار ، فترتفع تلك الصناديق براكبها حتى تنتهي الارتفاع ، ثم تهبط بهم الى الأرض ، فركبتها فارتفعت رويداً رويداً ، وكلما ارتفعت ظهرت أمامي قباب المعرض وامتدت لعيني مباني باريس ، ولما بلغت أقصى نقطة وقفت فأخذت أتأمل في هذا المنظر الذي انبسط أمامي ، وكان الجو صافياً ، والهواء عليلًا ، فرأيت برج ايفل ورأسه في السحاب ، يخفق عليها العلم الفرنسي ولسان حاله يقول « انى وان كنت غريباً في هذا المعرض ، إلا انى لم أزل أبسط نظرى على جميع أكنافه ، شاهد عدل على ان هذا العصر عصر الحديد ، اذ به قوام المعرض وهو منه بمنزلة الهيكل العظمى من الحيوان ، وما روحه إلا الكهرباء ، فهى التى تدير جميع ما فيه من دواليب وآلات ، وهى التى تجعل ليله نهارةً »

ثم أصغيت ، فاذا صوتان يتحاوران ، وقد لجأ فى المقال ، وأمعنا فى الجدل ، وأكثرنا من الحجاج واللجاج ، وإيراد الاحتجاج بعد الاحتجاج ؛ فاستمعت عليهما حتى علمت من فحوى تحاورهما ، أن أحدهما لروح المعرض ، تدافع عنه التهم التى تلقىها عليه روح باريس ،

فوعيت ما دار، واني ناقله الى القارئ — بقدر ما تسمح الذاكرة —
قالت روح باريس :

« مالي أرى مجازاتي وطرقى ، وقد سدت فى وجوه السابلة ،
وشواطى نهرى ، وقد حرمت على المتزهين ؟

أهذه حسنة المعرض الذى ينخلونه فوائده لا أدركها ، وفضائل
لا أستريح الى الاعتراف بها ؟

وما شأن تلك البنيات التى لم يلاحظ فيها إلا التأثير فى نفس
المتفرج ، دون ملاحظة القواعد الهندسية ، والمناسبات العلمية —
هذا من الجهة المادية

أما من الوجهة الاجتماعية ، فانى أرى كثيراً من الناس يتوهمون
أن هذا المعرض سيدخل عليهم بالكسب الكثير ، والربح الوفير ،
فاذا أخطأهم الحظ ، ولم يدركوا بغيتهم ، أخذ فيهم القنوط ، واستولى
عليهم اليأس ، ودفعم ذلك الى ما لا تحمد غايته

وأما من الوجهة الأدبية ، فان المعرض يجمع اليه كل أسباب
الهم والفساد ، بما يزيد الأخلاق ضعفاً ، والأنفس انخدالاً

فان قيل إنه يزيد فى ثروتى ، فلا ننسى أنه أيضاً يزيد فى فقر
البلاد الأخرى ، وماذا يجدى فرنسا اذا اغتنت عاصمتها بفقر
قراها ؛ كل ذلك فضلاً عما يأتى به المعرض من وجوه المتاعب ،

وتعويد من وافقه الحظ، وأسعدهُ الجد على زيادة الاتفاق، والتزيد مما لا حاجة به من فنون الكماليات، حتى اذا ما انقطعت هذه المادة، ونضب معين التكسب بذهاب المعرض، أخذت عليه منافذ الرجاء، وسدت في وجهه سبل العيش، مات بالحسرة، أو عاش متسخطاً على الزمان، متبرماً بحوادث الأيام؛ وقد كان راضياً بميشته، شاكرًا لمولاه أنعمه «

« وحسبك أن المعرض قد استاق الى العمال من جميع الآفاق رغبة في الكسب، وتطلعاً الى الربح، فكيف اذا أصبحوا ولا يجدون بين أيديهم عملاً يبلغون به أرزاقهم، أليس اذا عضهم الجوع بناه، وثقل عليهم حمل الحياة على الخلة والطوى، انشعبوا بالضرورة في ارجائي، يطالبون أقواتهم على شفاز المدى، وتسلبوا الى كل خبيثة مما ذخر العاملون فيها أعلاقم وكرائم أموالهم، فعبثوا بنظامي، وأزعجوا راحة سكاني، فما كان أغناني عن كل ذلك «

وزد على هذا ما يكون من احتشاد الناس في المعارض، وافساد الجو بما يضعف به شأن الحالة الصحية «

« وهل المعارض إلا عبارة عن الأسواق والموائد التي كانت تقام في بعض البلدان، في سالف الأزمان، ولا تزال الى الآن في بعض البلاد الشرقية، والأقطار القصية؛ وقد كانت سهولة المواصلات سبباً

في ابطالها، وعن قريب تمضى المعارض على آثارها، فهي ذاهبة غير دائمة، ولا خير في عمل لا يدوم»

« فان قيل إن فائدة المعارض لا تجحد في بعث الأزهان على توليد المخترعات، والافتنان في اتقان ضروب المصنوعات، قلت وأى أثر يكون لذلك اذا كانت الأسواق التي تتصرف فيها هذه السلع ضيقة، وكانت الأمم على هذا التبارى والمكاثرة بما تخرجه كل منها. ولا يذهب عنك أن اليابان وهي أحدثهن في باب الحضارة عهداً، قد أصبحت تستغنى بما تصنعه من العروض والأقمشة ونحوها، ثم تسعى الى أن تباع غيرها ما فضل من ذلك عن حاجتها»

« فاذا دام التناحر على هذه الحال، فهناك الطامة الكبرى، والبلية العظمى، حيث تسل السيوف وأشعر القنا، لسبب ظاهره رد الشرف أو تقرير الحضارة، وباطنه حب المال والمزاحمة التجارية والمنافسة المالية؛ فبئس ما كانوا يصنعون»

« كل أولئك عدا ما يلقيه المعرض من وجوه العقبات في سبيل السياسة الفرنسية، حتى جعلها تهمل كثيراً من المسائل المهمة سعياً وراء اتمامه وانجاحه» اه

فاجابتها روح المعرض، وهي تتمزق غيظاً مما سمعت: «حقاً انى

لني غاية العجب مما سمعت ، وخصوصاً منك أيتها الصديقة ، فعوضاً
عن أن تشكرني على الخدم الجليلة التي قت بها نحوك ، أراك
تشهرين بي وتلوميني ، فهلاً نخرت بوجود هذا المؤتمر العام لجميع
الدول في ربوعك ، وقد نسيت ما بينها من الضغائن ، وتجاوزت عما
في نفوسها من المطامع ، وأنت تحتفل بهذا العيد العظيم ، عيد العمل
والمثابرة على الجد والنشاط ؛ فما أطف هذا المنظر وما أحلاه ، أمم
اختلفت ألوانهم وأديانهم ، وسهلت لهم سرعة المواصلات هذا
الاجتماع ، وكلُّ بكٍ معجب ، فكأن الدنيا قد حملت اليك عادات
أهلها وأخلاقهم على اختلافها ، وصنائعهم على تنوعها ، فكم في ذلك
من فائدة للمتأمل ، ودرس للمتعلم ، ومجال للعالم والصانع والمخترع ؛
فضلاً عما استفاده العمال الذين اشتغلوا في المعرض من الفوائد ،
والحركة التجارية التي كان هو سببها غير مدافع »

«وأما عن ازدحام الأسواق بالبضائع والمصنوعات ، ودفع الأمم
الى المزاحمة في الاستعمار ، فهذه سنة الخليفة من عهد أن وجد العالم ،
وتفرقت الشعوب ؛ وقد قضى ناموس الطبيعة بخضوع الضعيف
لسلطة القوى ، وتخطي المتوحشين درجات التمدن والحضارة ؛ فليس
للمعرض ذنب في ذلك ؛ بل ذلك أدعى لتوثيق روابط الاخاء بين
الدول ، وعوامل التضامن بين الأمم ، لأنه سبب لتعارفها ببعضها ،

فتمت استمكن التعارف ، حمل على التألف ، ومن جهل شيئاً عاداه»
« ولا يخفى ان المعارض قديمة العهد عند اليونان والعرب ، ولم
تزل موجودة للآن لما فيها من سمو المقاصد ، وحمل الناس على
الاجتهاد في البحث والعمل ، للوصول الى الغاية التي ينتهي اليها
العقل ، ويقف عندها الادراك ، سعياً وراء سعادة الأمة ، وتقدم
العمران ؛ فهي مفيدة من جميع الوجوه ، لأنها تزيد في الثروة ،
وتحقق راحة الانسان بما ينشأ عنها من استنهاض الهمم الى
الاختراعات المفيدة ، والمبتكرات الفريدة » اهـ

وفيما هما يتنازعان ، وكلُّ يجِدُّ في تأييد زعمه بالبرهان ، واذا
بصوت جهورى قد دخل بينهما لفصل الخلاف بصفة نهائية
لا تقبل النقض ، ولا تحتمل الرد ، فتشوقت لمعرفة أسباب حكمه ،
لا سيما بعد أن علمت انه لروح العلم العام ، واذا به يقول : « قد
أصاب كلُّ منكما بعض الاصابة ، وان تطرّف في رأيه ولم يقف
عند حد الاعتدال ، فالمعارض كغيرها من الأمور الدنيوية ، ليست
خيراً محضاً ، ولا شراً محضاً ، وخيرها اكثر من شرّها اذا روعيت
فيها بعض الشروط ، كمنع ما يكون مخالفاً بالآداب ، وجعلها خاصة
مرة بالزراعة ، وأخرى بفرع من فروع الصناعة ، فيقل الازدحام ،
ويمكن للمشتغلين بما فيها من المعارضات أن يدرسوها بكل طمأنينة

وسكون ، مع مراعاة عدم الإكثار منها ، وتكرارها في أزمنة متقاربة ، لأن التقدم بطيء ، ولا خير في معرض ليس فيه جديد « ولا بأس من إيراد بعض الملحوظات على ما احتجَّ به كلُّ منكما ، فللمعارض لا تزيد في الثروة ، ولكنها تنقلها من مكان الى مكان ، ومن جيب الى آخر . وأما ما قيل من انها تساعد على توثيق العلائق بين الدول ، فهذا أمر ظاهري ليس الآ ، فاذا مروت بشارع الأمم ، ورأيت قصور الدول يُجاور بعضها بعضاً ، حسبتهم جميعاً وقلوبهم شتى ، فاذا قرأت بعين الفكر ما هو مسطور على هذه المباني من المنافسة والأطماع ، وحب الاستئثار بالمنفعة والنكاية بالغير ، لم تغترّ بظاهر الأمر ، ووقفت على سر المسألة .

ولا مشاحة في ان المعارض مع كثرة زوّاره ، وشدة الحركة التي تحدث عنه ، يزيد في ثروة الفرنسيين على العموم ، والباريسيين على الخصوص ، لاسيما أصحاب الفنادق ، والنوادي العمومية ، والمطاعم وغيرهم ؛ ولا تنس ما يدخل على الحكومة من عوائد الجمارك ، ولا ما تربحه الشركات من أجر النقل في السكك الحديدية ، والسفن ونحوها ؛ ولكن المعارضين أنفسهم وهم أولى الناس بالكسب ، لأنهم هم الذين تكبدوا المشاق ، وبذلوا النفيس من المال ، طمعاً في انماء ثروتهم ، قلَّ أن ينالوا ما يرغبون ، بل منهم عدد عظيم لا تسمح لهم

الظروف باسترداد المال التي صرفوه، فالمعرض من هذه الوجة
الاقتصادية عمل غير محمود»

ولما أتمت روح العلم مقالها، رضى الخصمان لحكمها، وسكنا الى
رأيها، وتفرقوا والساعة التاسعة، فأطلقت أسلاك الكهرباء، ما
أجنت في جوفها من الأضواء، ففشرت على كل مكان من البهاء برداء،
وقلده من اللآلئ عقداً

وبرز للمعين قصر الأنوار، وكله من البلور الملوّن جدراناً وسقفاً،
وسلاماً وعمداً، تضربه أشعة الكهرباء من جميع جهاته، فيتألق في
جميع الألوان، بما ينهب العين ويفتن الجنان؛ فكأنما حسبت
نجوم السماء أن المعرض قد أوفى على ليلة عرسه، فنقطته من بينها
بسهيل حتى يتشاكل فيه السنا والسناء، وتجتمع عنده زينة الأرض
بزينة السماء

ورأيت قصر الكهرباء مكللاً بتاج من نور، وأمامه قصر
يتدفق منه الماء على هيئة شلالات، تراها بيضاء، فاذا هي حمراء،
فاذا هي زرقاء، ألوان تدهش الناظرين، وتسر الشاهدين

ثم رأيت عن بعد سراي الحرب، ويجوارها سراي الصحة،
تناقض بين وتناق ظاهر، ففي هذه يسعى الإنسان الى تخفيف
آلام أخيه بواسطة الأدوية والعقاقير، والاحتياطات الصحية،

والعمليات الجراحية؛ وفي تلك يتحفز وراء قتل اخوانه في الإنسانية
شر قتلة، فيخترع لذلك ما يئليه عليه شيطانه من ضروب المدافع
والبنادق، وأصناف الككل والرصاص وغيرها من آلات الدمار، مما
يؤيد به كلمة دولته، سواء كان الحق من صفها أم لم يكن

وبينما كنت غريقاً في بحر هذه الأفكار، كانت العجلة سائرة
فتارة كنت أرى العربية التي تحماني على بعد عظيم من الأرض، وتارة
أراها تكاد تمسها، وتارة أراها واقفة لا تتحرك، وما هي إلا مثال
صغير للدنيا ترفع قوماً وتخفض آخرين، وطوراً ترفع من خفضت،
وتخفض من رفعت، وهذا شأنها من قديم. ولما فارقت العجلة تزلت
للتزه في ميدان مارس بالقرب من برج ايفل، وكان الازدحام
شديداً؛ ثم رأيت الناس يهرعون الى جهة التروكادرو، وسمعت
طبولاً ومزامير شرقية، فصرت لأنظر ما الخبر، واذا أنا بمنظر قد
بكيت له حزناً؛ وكيف لا أبكي وقد شاهدت رجالاً من جميع
المستعمرات الفرنسية، من عربي وسوداني، وهندي وصيني،
تحيط بهم الجنود الفرنسية، وهم منتظمون على شكل موكب، منهم
الفارس والراجل، وكلهم بملابسهم الشرقية، تكتنفهم الأعلام
والبيارق، تتقدمهم رموز بلادهم من هياكل وأهالة ونحوها، وهم فرحون
غير مستشعرين بما في هذا الموكب من ثقل الذل وشديد العار

وقد بعثى هذا المنظر المحزن على التفكير فى تأخر الشرق
وانحطاطه الى هذه الدرجة التى نراه عليها اليوم، لا سيما وانى
كنت أرى من أول المعرض الى آخره حقيقة ظاهرة، وهى
تسلط الغرب على الشرق، فى كل بقعة وكل قطر، وتأخر الشرق
عن الغربى مهما كانت ديانته، ومهما كان الجو الذى يعيش فيه؛
ويكفيك دليلاً على ذلك معارض المستعمرات وكلها للغربيين، والمقارنة
بين معروضات الشرقيين والغربيين . فالغربيون إنما يعرضون
أسلحتهم، وصناعاتهم، وطرق تعليمهم؛ وأما الشرقيون، فيعرضون
راقصات مهتكات، ومقاومة الشرقى للغربى هى بنسبة مقاومة آلات
الطرب والعبث لكلل المدافع، فلا بدع اذا كان هذا سلاحنا
وسلاحهم ان تغلبوا علينا فى كل مكان

وقد نسب قوم تأخر الشرقيين الى دينهم، ورموا الديانة الاسلامية
خصوصاً بهذه الوصمة زوراً، ونسوا أو تجاهلوا ما كان عليه المسلمون
من القوة والمنعة والعز، أيام كان الدين بينهم قوياً منيعاً عزيزاً . ولعل
الذين يقولون هذا القول معذورون لما يرونه من حالة المسلمين
اليوم، وما هم عليه من الاستكانة والميل الى الكسل، وسوء فهم دينهم،
والاعتقاد الباطل من أنه يحثهم على الاتكال بلا عمل، وذلك كله
ببركة الجهلاء الذين رقوا منبر الوعظ أو التعليم، فدفعوا الأمة الى بلوغ

هذه الغاية التي وصلت اليها ؛ فالأجنبي معذور ان رمى الدين بما يراه سائداً من هذه التعاليم بين أهله ، وان كان الدين من ذلك كله براء . فمن لنا بعماء يرشدون الناس الى صحيح دينهم ، ويفهمونهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً »

ولعله لم يصل بنا الى هذا الموضوع ، ولم يخرف بعمائنا وخطبائنا عن الجادة الأستبداد الحكام . وان أغلب البلاد الاسلامية بلاد زراعية ، يميل أهلها الى السكون والصبر على المظالم ، فاذا كان الحاكم من الأخيار عمل خيراً كثيراً ، وان كان من الأشرار عمل شراً كثيراً ، لعدم وجود المقاومة في الحالتين ؛ فاذا كان الاستبداد قاعدة حكومة يبس عود العلم فيها ، واشتغلت النفوس باتقاء شرّها ، مقدّمة ذلك على كل شيء سواه ، فيعم الجهل ، وتتراكم الظلمات ، فيفقد معها كل احساس شريف . فاستبداد الحاكم هو أس كل بلية ، فاذا زال نشطت النفوس ، وعمل كلٌ بحمد وعزيمة لاطمئنانه على نفسه ، وعلمه انه يعمل لنفسه . ومتى حسنت حال الأفراد صلح حال الأمة ، ومشت في سبيل التقدم والصلاح . انظر ما كانت عليه حالة اليابان منذ خمسين سنة ، وما هي عليه الآن ، وهي أمة شرقية . تأمل في معروضاتها ، تجدّها زاحمت الأوروبيين في كل

الصنائع ، حتى فى التصوير ؛ وما ذلك الا لان حكومتها اتحدت مع
اهلها على ترقية البلاد ، فحصلت على ما تشتهى ، وادهشت جميع العالم
بسرعة نجاحها . فلعل الروح الذى نفتح فيها يزورنا ، فتهب من هذا
الرقاد الطويل . وعلى كل حال ، فاملنا فى المستقبل عظيم ، وشعور
الشرقين بما هم عليه من التأخر ، من اهم الأسباب التى تقوى هذا
الامل ، وتبعث فىنا روح العمل

لم يبق على الا ذكر بعض الشىء عن المعرض المصرى ، وقد
كتب عنه كثير من الافاضل ، لاثمين الشركة التى اقامته على
عرضها مايشين المصريين من رقص قبيح ، وتركها بعض السفلة
يتزيون بزى العلماء ، وغير ذلك من الامور التى تزرى بنا عند
الأجانب ، وتنقص من اقدارنا فى أعينهم

وأذكر أن الاقتصادى الشهير الموسيو جيد ، دعانى لتناول
الطعام عنده فى يوم ١٤ يوليو ، وهو يوم عيد الجمهورية ، فوجدت
عنده كثيراً من علماء الاقتصاد السياسى ، وبعد ما رفع الطعام ،
أخذنا نتجاذب أطراف الحديث ، فقال لى أحدهم وأسمه الموسيو
دى بواف ، عند ما علم أننى أسكن القاهرة : أصبح أن القاهرة
مدينة فاسدة الأخلاق ؟ فمعبت لذلك ، وأجبتة كلاً ؛ بل ان مثلها
مثل كل عاصمة من العواصم ، لا تخلو من مواطن للهو والفجور ،

ولكنها أقل من عواصم أوروبا فساداً ، وأكثر منها وقاراً ، فاستغرب هو الآخر من هذا الجواب ، فسألته هل زرت المعرض المصرى ، فقال نعم ، فقلت له ، إذا فهمت سبب سؤالك و سرّاً استغرابك ، فتبسم ضاحكاً ، وانتقلنا الى حديث آخر بعد ان أجهدت نفسى فى ايراد الأدلة والبراهين ، على أن ما رآه هناك لا يمثل مصر والمصريين ، إلا فى الأمور التى تمجها أذواق عقلائهم ، ولا يحفل بها الأرعامهم

ولكن ليس الذنب كله فى ذلك على الشركة ، وهى لا تكاد تكون مصرية إلا بالاسم ، لا يههما إلا كسب الدرهم والدينار ، سواءً ظهرت مصر بأعمالها فى مظهر يسىء أو يسر ، فطرقت الباب الذى كانت تنسم من خلاله ریح الربح ، فساء فألها ، وخسرت خسارة كبيرة

أليس الذنب كل الذنب على سراة المصريين ، وأعاضم تجارهم الذين لم ينفاروا على بلدهم ، وعندما علموا أن الحكومة قد تخلت عن المشاركة فى المعرض ، لم يجتمعوا لتمثيل وطنهم أمام العالم بصورة يرضونها له . وعندى أن الضرر الذى يلحق بالوطن من اقامة معرض غير لائق به ، أشد من كتابة الجرائد فى ذمه المقالات الطنانة ، وطمع أفصح الخطباء فيه بالخطب الرنانة ، فالقائمون بمثل هذا

العمل يتحملون مسؤولية كبرى ، ولا بد من مراقبتهم المراقبة الدقيقة ، حتى لا يمثلوا بالبلاد شرّاً تمثيل ، ولا يشهروها أسوأ شهير ، والسلام

وصف مدينة فيشي وبعض ضواحيها

قمتُ من باريس عملاً بإشارة الأطباء ، فوصلت الى فيشي في يوم ٢٢ يوليو سنة ١٩٠٠ ، وهي تبعد عن باريس بنحو الخمس الساعات بالاكسبريس ، فألفيتها مدينة زهراء ، قد جمعت فيها أسباب الراحة ووسائل النزهة ، وألبست حلة من البهاء والجمال ، استعداداً لزيارتها العديدين . وهي واقعة على ارتفاع ٢٦٤ متراً عن سطح البحر ، ويبلغ عدد سكانها نحو ١٢٣٣٠ ، ولكنها في فصل الاستحمام (من ١٥ مايو لغاية ٣٠ سبتمبر) يبلغ عدد من يؤمها من الأجانب نحو الثمانين ألفاً ، ولذلك تجد فيها من الفنادق الواسعة ، والنزل الفاخرة عدداً عظيماً ، لشهرة مياهها المعدنية من قديم الزمان ، حتى كان الرومانيون يستعملونها ، ويسمونها المياه الحارة ، ولكنها لم تشتهر كثيراً ، ولا يعرفها الخاصّ والعام إلا من عهد نابوليون الثالث امبراطور فرنسا ، فانهُ تردد عليها ، وأقام في ربوعها ، ووجه الأنظار اليها ، وحوّل الأفكار عن غيرها ، وذلك شأن الناس ، تراهم يميلون الى ما ترمى اليه أنظار عظمائهم ، ويهرولون الى ما تسعى اليه ملوكهم ،

ولذلك كانت مسؤولية الرؤساء كبيرة ، لأنهم بكيفية سيرهم يدفعون بالامم إما الى طريق الفلاح والسلامة ، أو الى طريق الدمار والندامة وأهم عمارات فيشى ، بناء المحطة ، فالمستشفى الحربى ، وكنيسة مارى لويس ، والنادى الدولى ، والكازينو ، ومحل الحمامات ، ومركز البلدية . وأما الحدائق ، فأهمها البستان الجديد ، الذى جُدد فى عهد نابوليون الثالث على شاطئ نهر الالييه (Allier) ، والبستان القديم ، وهو ملتقى جموع المتزهين ، والمستطبين ، وبستان سيلستان وغيرها »

ومما امتازت به فيشى ، ميدان سباق الخيل ، على مقربة منها ، وأهمية الجوائز التى توزع على من يحرز قصب السبق فيه ، وقد حضرت يوماً سباقاً نال فيه جواد للبارون دى روتشلد جائزة قدرها ١٠٠٠٠ جنيه ، فكان ذلك مصداقاً لقول العامة « ان المال يجلب بعضه بعضاً

هذا وينابيع المياه عديدة ، منها ما هو ملك للحكومة ؛ كينبوع المستشفى (Hôpital) ، وينبوع سيلستان وهو بارد ؛ وينبوع السيدات (Mes Dames) ويكثر فيه الحديد ؛ وينبوع الجرند جريل (Grande-Grille) ، وتبلغ حرارة مائه ٤٤ درجة ، وينبوع شومل (Chomel) ، وهو أشد حرارة منه . ومنها ما هو ملك للأفراد :

كينبوع (لوكا)، وينبوع (لاربو)، وينبوع (لاردى)، وينبوع (سان يور) (Saint-Yorre) وغيرها وهذه الينابيع مباحة للعموم، يشرب منها كل من أراد

وهذه المياه تنفع بالشرب، أو المضمضة، أو الاستحمام، على حسب الظروف واختلاف الأمراض وتركيبها كلها متقارب؛ اذ هي عبارة عن صودا، وبوتاسا، ومنيزيا، وجير؛ وهي تقريباً الاجزاء التي يتكوّن منها دم الانسان، وأكثر تأثيرها في أمراض المعدة، والكبد، والأمعاء، والضعف، وعسر الهضم، واليرقان ومما يزيد في بهجة فيشى، ويجب الى الانسان الإقامة فيها، جمال الجبال والقرى التي تحيط بها، وتكتنفها من جميع الجهات، والطرق الممهدة للوصول الى كل نقطة منها؛ ومن هذه القرى، قرية كوسيه (Cusset)، وفيها مياه معدنية كثيرة، وحاجر سانت أمان (Saint-Amand)، وفي طريقه كنيسة برسم ماري جرجس، وله فيها تمثال ممتطٍ جواداً، فاذا رغبت احدى بنات تلك الجهة أن تزوج، وأبطاً عليها الخاطب، عمدت الى ذيل جواد القديس، ونزعت منه شعرة، معتقدة ان ذلك مما يدعو الى نيلها ما تشتهي وتتمنى، وهكذا فانه مهما بلغ الانسان من التمدن، فان الخرافات القديمة، والاعتقادات الفاسدة، تتغلب عليه في بعض

الاحيان ، فيلبي طلبها ، غير مستشعر بسخافة عمله ، وسوء ما هو صانع
ويوجد أيضاً على مقربة من فيشى قصر قديم ، مبنى في
الأعصر المتوسطة ، يملكه الآن الكونت دى بوربون بوسيه ، وهو
على شكل قلعة منيعة ، يدل المتأمل فيه على ما كانت عليه هذه البلاد
في تلك الأزمنة الخالية من قلة الأمن وشدة الظلم والاستبداد ، مما
عملت على ازالته أفكار العلماء ، وأقلام الكتّاب ، وسيوف الأبطال
ثم فيس (Vesse) ، وهى قرية صغيرة ، وبها ينبوع لا يفيض
مائه في اليوم والليلة الا ثلاث مرات ، يلبث في كل مرة ساعة من
الزمن بترتيب منتظم ؛ فاذا جاء ميعاد ظهوره ، رأيت الماء وقد نبغ
من فوهته ، ثم أخذ في الارتفاع شيئاً فشيئاً ، حتى يبلغ نحو الخمسة
الأمطار ؛ ثم يهبط رويداً رويداً حتى يفيض ، وكأنه ولا ماء ، فسبحان
الخالق العظيم

وهناك أيضاً محل يسمى اردوازيير (Ardoisièrs) ، كان
يستخرج منه الحجر الأسود المسمى بالاردواز ، يصل اليه الانسان
من طريق جبلية ، تكتنفها الاشجار من الجانبين ، وهى تارة فى
صعود ، وأخرى فى هبوط ، يمتد منها النظر الى الوديان والآكام على
بعد شاسع ، وتغير مستمر فى المناظر والأشكال ، مما يشرح الصدر ،
وينعش القلب . وقد قيل لنا ان هناك شلالاً جميل الشكل ، فأتجهنا

نحوه ومعنا الدليل ، فوق بنا أمام نهر صغير ، ليس به من الماء الآ
ما يستر القدم ، وبه حجارة تعترض سير مياهه ، فأشار الى هذه
الحجارة وهو يقول : هذا هو الشلال ، ولكن الماء الآن قليل ،
فضحكنا ولكن على غير الدليل ، واكتفينا من الشلال ، بتصوره
في الخيال

والتأمل في فيشى وما اتسق فيها من أسباب الراحة لكل وافد
عليها ، يرى الفرق بين بلديتها وشبه البلديات في بعض مدننا ،
كهلوان مثلاً؛ ويعلم كيف يشتغل المشتغلون ، ويعمل العاملون لارتقاء
البلاد وسيرها في طريق التقدم والمدنية ، فلا تمضى سنة الا ويتبعها
اصلاح جديد ، مما يُرغِبُ الناس في الإقبال عليها ، ويزيد في ثروة
الأفراد والحكومة معاً

ولكني لاحظتُ على فيشى أمرين منتقدين ، يظهر أنه لا تخلو
منهما مدينة من مدن الحمامات بأوروبا . أما الأمر الأول ، فهو
كثرة البغايا الى حد لا يتصوره العقل ، قرى الطرُق مشحونة
بالبنتزهات منهنّ وكلُّ ترمى شباكها لتصيد فريسة ، وإن كانت
الآداب الظاهرية محفوظة ، حتى لا يمضى فصل الاستحمام ، وإن
شئت فقلّ زمن الموسم ، إلا وقد جمعت ما يلزمها في بقية عامها .
والأمر الثاني ، هو انتشار المقامرة بصفة رسمية حتى لا يكاد يخلو

منها محلّ عمومي . ولا يخفى أن كل ذلك مفسدٌ للاخلاق ، ولكن الافرنج تعوّدوا هذا الأمر فصار عندهم مألوفاً لا تمجُّهُ أذواقهم ، بل تطلبهُ أنفسهم ، ولذلك لم تمنعهُ البلدية خوفاً من تغيير خواطر السياح ، واستكمالاً لأسباب البهجة والسرور

كلرمون (Clermont) و (روياء) - ولما كنت في فيشي ، دعاني أحد أصحابي الفرنسيين الى الشخصوص معه الى كلرمون ، لزيارة أخ له هناك ، فركبنا القطار حتى وصلنا اليها بعد ساعاتٍ قليلة ، حيث تلقّانا أخوه واكرم وفادتنا ، شأن الفرنسيين في مقابلاتهم ومعاملاتهم ، فقضينا الليل ، وفي الصباح طفنا بالمدينة ، فوجدتها ليست بالكبيرة ، بها من السكان ٤٣٠٠٠ ، وهي قاعدة مديرية (بوى دى دوم) (Puy de Dome) ، اسم جبل قريب منها ، ويبلغ ارتفاعها نحو ٤٠٠ متر عن سطح البحر ، وهي مركز أحد الجيوش الفرنسية ، وبها كثير من المدارس العالية ، والكنائس الضخمة ؛ ولا سيما كنيستها الكبرى التي بنيت في سنة ١٢٤٨ ميلادية

ومن أحسن العمارات التي بناها ، قصر المديرية ، والدور العتيقة التي حفظ لها شكلها القديم ، وفسقية (امبرواز) ، وهي في غاية الرشاقة والجمال ، وتمثال بسكال المهندس المشهور ، والكاتب الطائر

الصيت ، مخترع عربة اليد والمكبس المائى ؛ وتمثال (ديزيه) أحد القواد الذين رافقوا نابليون الأول فى حملته على مصر ، وطارده المماليك فى الصعيد ؛ وقد شاهدت فيها بقايا سور ضخيم يسمونه حائط العرب ، يظهر انه كان بُنى ليصد هجمات هؤلاء الأبطال عن المدينة ، وتذكرت انها كانت محل اجتماع المؤتمر الدينى الذى تقررت فيه الاغارة على القدس ، ونودى فيه باعلان الحرب الصليبية ، فقلت « يالك من بلد قد جمعت بين أطراف التاريخ قديمه وحديثه » ، وكنت أرى الحيطان كلها سمراء ، تكاد تكون من لون الصخر ، مما تنقبض منه النفس ؛ وعلمت ان سبب ذلك انها مشيدة من أحجار بركانية ، يكثر وجودها فى تلك الجهة

وتكثر العيون فى كليرمون وضواحيها ، وكلها حديدية مع شىء من الحمض الكربونى ، وهى نافعة لضعف الدم ، وداء الخنازير ؛ وأهمها عيون (رويا) ، وهى على بُعد عشرين دقيقة من كليرمون بالترامواى الكهربائى ، وبها فنادق عظيمة يقصدها المرضى من كل ناحية ، ولكنها أقل أهمية من فيشى بكثير ؛ وأغربها عين سنت ألب وهى عين تلقى فيها الأشياء على اختلاف أنواعها ، من حيوان وفاكهة وغيرها ، وتترك مدة معينة ، فتحجر مع حفظها لشكلها الطبيعى ، ويخالها الانسان كأنها صنعت من حجر ، وقد رأيت

هناك بقرة وتبيغها (ابنها الصغير) ، كأنهما تمثال منحوت ، وطيوراً
في أوكارها والبيض من تحتها ، وكل ذلك قد تحجّر ، فلم أمنع نفسي
من اقتناء بعض هذه النفائس ، فسبحان الذي منح كل شيء خاصة ،
سبحانه هو الخلاق العظيم

ثم استأذنت صديقي وشقيقه شاكراً ، وعدت الى فيشى لاتمام
علاجي ، حتى اذا ما اتقضى الزمن المعين للعلاج وهو ثلاثة أسابيع ،
وجدت في نفسي نشاطاً ، وفي صحتي تقدماً ، فركبت الوابور
ميمماً بلاد سويسرا للتمتع بهوائها العليل ، ومناظرها الجميلة ؛ وكان
أحد أصدقائي الأفاضل ينتظرنى في مدينة جنيف التى بلغتها بعد
سفر تسع ساعات تقريباً ، وعزمت على الإقامة فيها أسبوعاً

بعض أيام فى سويسرا

جنيف — زرت جنيف مرة فى سنة ١٨٩٩ ، وأخرى فى سنة
١٩٠٠ ، فسرت من الإقامة فيها ، لما اختصت به من جمال الوضع
الطبيعى وحسن المنظر ، وهى واقعة على ارتفاع ٣٧٥ متراً عن سطح
البحر ، يسكنها نحو ٨٦٥٣٥ نفساً ، يكثر بينهم الاغنياء ، حيث
يوجد فيها ٢١٦ تزايد ثروتهم عن مليون من الفرنكات ، وهى قائمة
على الشاطئ الجنوبى من البحيرة المسماة باسمها ، حيث يخرج نهر

الرون ويقسمها الى قسمين ، وقد نشأ فيها رجال اشتهروا بسمو الفكر ، وقوة التأثير ، نخص بالذكر ، من بينهم (روسو) الذي وُلد فيها سنة ١٧١٢ ، وكانت أفكاره السياسية والفلسفية من اكبر العوامل التي حركت الثورة الفرنسية الكبرى ، و (كلثان) أحد مؤسسي الديانة البروتستانية الذي توفي فيها سنة ١٥٦٤

وقد تغير على هذه المدينة من الحوادث التاريخية والتقلبات السياسية ما يضيق المقام عن استقصائه ؛ وآخر حوادثها انضمامها الى فرنسا في سنة ١٧٨٩ ، ثم انفصالها عنها والتحاقها بسويسرا سنة ١٨١٤ ؛ وهي كما قدمنا منقسمة الى قسمين يجمع بينهما ست قناطر ، أهمها قنطرة الجبل الأبيض ، ويبلغ طولها ٢٦٠ متراً وعرضها ١٦ متراً ، وعلى مقربة منها جزيرة معروفة باسم روسو الفيلسوف الشهير ، وبها تمثاله جالساً على كرسي تحيط به الكتب ؛ وأما شواطئ النهر فقد أقيمت عليها الأرصفة الجميلة ، ويرى الانسان وهو يتنزه فوقها في حالة الصحو سلسلة الجبل الأبيض البالغ ارتفاعه ٤٨١٠ امتار

وأهم ما في المدينة من الآثار تمثال برنزويك ، وهو دوق توفي فيها سنة ١٨٧٣ بعد ان وهب لها ماله وقدره عشرون مليوناً من الفرنكات ؛ والكرسال ، وهو محل للتمثيل ؛ وسراى البوستة ، والتمثال الوطني ، وهو رمز لانضمام جنيف الى سويسرا في سنة ١٨١٤ ؛

والجنينة الانكليزية بما فيها من القهوة والمطاعم والتماثيل ؛ ثم
النوفرة القائمة على مقربة منها ، ويبلغ ارتفاع الماء المتدفق من فوهتها
٣٥ متراً ، وهي على مقربة من منزله أو قيف (المياه المنعشة) وبه
عين معدنية ، وعدة قهوات ويكثر فيه سماع الموسيقى ؛ ثم الكنيسة
الكبرى المشيئة في سنة ١٠٢٤ ؛ ودار الحكومة ؛ ودار السلاح ؛
وحديقة النبات ؛ ودار العلوم ، وبها نحو سبعين أستاذاً وخمسة
طالب ؛ ودار الكتب ، وبها مائة وثلاثون ألف مجلد و ١٨ ألف
كتاب مخطوط ؛ ثم متحف التاريخ الطبيعي ؛ ودار التمثيل ، ووجهتها
على غاية من الرشاقة واللفظ ؛ ومتحف راث ، وهو قائد روسي
توفي في المدينة بعد ان وهبها جميع ما اقتناه من النفائس ؛ ثم محل
توليد القوة المحركة ، وهو عبارة عن مجموع آلات تدور بحركة مياه
النهر فتخرج الى المدينة ما يكفيها من الماء ، وتعطى أرباب المصانع
قوة يديرون بها آلاتهم بأجر زهيد

وأما ضواحي جنيف فمشهورة بجبالها وسهولة الوصول اليها ، سواء
كان ذلك بالسكك الحديدية ، أو المراكب البخارية ، أو العربات
العمومية ، أو المركبات الخصوصية

وقد زرت من بينها متحف أريانا وقد جمعت فيه أشياء كثيرة
كتماثيل وتصاوير ونحوها ، وهو هبة من أحد المؤلفين للمدينة ،

وبالقرب منه قصر البارون روتشلد المشيد ؛ ثم قصر قلتير الفيلسوف الطائر الصيت . وعلى بُعد خمس وعشرين دقيقة من المدينة زرتُ قريه ، وعلى مدى ثلاثين دقيقة منها جبل (السالف) ويبلغ ارتفاعه ١٣٤ متراً ، وكلاهما مصيف يكثر فيه الأجانب من جميع الأقطار ؛ ولكن أحسن رياضة يمكن الانسان التمتع بها هو أن يركب احدى السفن البخارية التي تقوم من جنيف طائفة في بحيرتها ، واقفة على أهم المدن التي ترتفع على شواطئها ، وهذه البحيرة بصفاء مائها ، وعليل نسيمها ، وجمال مناظرها ، كانت في كل وقت موضوعاً لتغزل الشعراء ، ووصف الكتاب ، ويبلغ طولها نحو الاثني وسبعين كيلومتراً ، وأكبر عمق فيها ٣٠٩ أمتار ، ومسطحها نحو مائة وثلاثين ألف فدان

وأهم المدن التي وقفت عليها فيها (أوشى) ، وهي الميناء التي يصل منها الانسان الى لوزان . وأما لوزان ، فهي مدينة بها من السكان فوق الاثني وأربعين ألفاً ، مشيدة في الجبل ، ولذلك تجد طرقها في هبوط وصعود ، تتصل ببعضها بقناطر أو انفاق ، وأهم ما فيها دار علومها ، وكنيستها الكبرى ، والقصر ، والمتحف ، ودار الكتب ، وقصر المحكمة . ثم منترية ، وهي عبارة عن شارع طويل ، ينتهي الى قصر قديم ، مرتفع على صخرة تلتطم بها أمواج البحيرة ،

لا يصل الانسان الى بابه الأعلى قنطرة متحركة بالسلاسل ، وهو مكوّن من طبقتين ، لا يكاد النور يدخل في السفلى منهما التي كانت معدة لسجن المجرمين السياسيين ؛ ويرى الانسان في جدرانها الحلقات التي كانت تربط بها السلاسل ، تغل بها أعناقهم ، ويجانب منها محل المشنقة ، وبها طاقة مطلة على البحيرة ، كانت تقذف منها جثث المشنوقين ؛ وقد قرأت على العمدة أسماء زوار كثيرين مروا قبلي في هذا المكان ، وبينهم اسم يرون الشاعر الانكليزي المشهور ، وفكتور هيجو الشاعر الفرنسي صاحب الكتابات العالية ، والتخيلات العجيبة ، وهذا القصر الخيف ، عنوان الاستبداد والظلم ، يسمى قصر شيون

ثم افيان ، وبها نحو الثمانية وعشرين ألف نفس من السكان ، وهي مشيئة على منحدر ، تعلو منازلها بعضها كالدرج ، وبها نزل كبير ، ومحل للتمثيل ، يكثر فيها السياح للانتفاع بمياهها البيكروناية

هذا وأهل جنيف تقرب أخلاقهم من أخلاق الفرنسيين في لين العريكة ، ولطف المعاشرة ، إلا أنهم يمتازون عن جيرانهم بالدعة والسكون ، وكلهم أهل عمل وجد ، يكثر بينهم التجار والصناع ، وقد امتازوا على غيرهم بصناعة الساعات ، وبعض المجوهرات

ونظراً لتردد الأجانب على بلادهم ، وكثرة ما يربحونه أثناء
اقامتهم بين ظهرانيتهم ، تراهم محافظين على احترامهم ، ساعين في
راحتهم . ومما لاحظته أيضاً ، محافظة أهل هذه البلاد على تخليد
ذكر من أحسن اليهم ، وتعطير تاريخه ، والثناء عليه ، شأن الأمة
المهذبة ، التي تعرف الجميل وتقدره قدره ، وربما كان ذلك هو
السبب في كثرة المتبرعين بأموالهم لمدينتهم ، مما يبعث على الدهش
والأعجاب ويا للأسف من كل شرق يعلم ما هنالك

والأخلاق التي ذكرناها عن أهل جنيف ، تنطبق على جميع
سكان سويسرا ، الآن أهل القسم الشمالي أقل ليناً ، وأكثر
شدة في الأخلاق عن غيرهم

برن - ثم قمت من جنيف ، ومعى بعض الاخوان الأفاضل ،
قاصداً برن عن طريق السكة الحديدية ، فبلغتها بعد مسير نحو
الثلاث ساعات في قطار قد جمع بين السرعة والنظافة ، كما هو
الغالب في جميع قطارات سويسرا ؛ وكانت الأمطار يومها تهطل
بكثرة ، مع اننا كنا في أواخر شهر أغسطس . وبعد أن استرحنا
قليلاً بالنزل ، خرجنا نطوف في المدينة ، فوجدناها أقل جمالاً وأهمية
من جنيف ، ويظهر انها حافظت على شكلها القديم ، فانك ترى
منازلها مغطاة بالرسوم المتنوعة من الخارج ، ومنتهية من أعلاها بجفت

كالمنازل التي شيّدت بمصر في عهد المغفور له محمد علي باشا، وترى في أسفلها المقاصير ذوات العمد الضخمة، تكثُر في شوارعها فساقى المياه القديمة العهد، وتقل فيها المخازن العظيمة، وتستتر فيها القهوات داخل البيوت أو أسفل العمارات

وبرن، وهي عاصمة سويسرا من سنة ١٨٤٨، بها نحو السبعة والخمسين ألفاً من السكان، وأهم ما فيها من العمارات أو المحلات العمومية: دار العلوم؛ ومكتب اتحاد البوستة العام؛ وبرج الساعة، وهو باب قديم لسور المدينة عليه ساعة عظيمة، فاذا حان الوقت صاح ديك، ثم خرج قطع من اللبنة ومرّ بين يدي رجل جالس، واللب هو رمز المدينة واسمها مشتقٌّ من اسمه بالألمانية، ولذلك تجده مرسوماً أو منحوتاً على أبواب منازلها ومخازنها؛ ثم دار المحافظة وهي من بناء القرن الخامس عشر؛ ثم بئر اللبنة وفيه تُطعم هذه الحيوانات على نفقة المدينة؛ والكنيسة ويبلغ ارتفاع منارتها مائة متر، ويجوارها مسطح يبلغ ارتفاعه ٣٥ متراً، يمتدّ منه النظر إلى بُعدٍ شاسع؛ ثمّ المتحف التاريخي وقصر الحكومة، وهما على غاية من الأبهة والجمال؛ ومنتزه كلين شنز؛ ومنتزه شنزلى؛ ويرى الإنسان منهما الجبال عن بُعد وبعضها يرتفع إلى عنان السماء؛ ثمّ متحف الفنون الجميلة، وبه تصاوير لكثير من السويسريين، بينها صورة شيخ عربي جليل،

ورسم شارع من شوارع القاهرة ، ورسم قبور ا خلفاء في مصر ؛ ثم
متحف التاريخ الطبيعي

هذا ويفصل بين المدينة وضواحيها نهر الآر الذي يعلوه كثير
من القناطر ، وأهمها قنطرة كيرشنغاه وهي من حديد يبلغ فتحة كل
قوس من قوسها ٨٧ متراً على ارتفاع ٣٥ متراً من سطح الأرض
وعلى ذكر القناطر أذكر أنه من الأمور الغريبة التي شاهدتها في
برن الفرق العظيم الموجود بين ميزانية شوارعها ، فترى البيت
الواحد على شارعين متوازيين ، فالدور الأول منه والثاني يصل إليهما
الانسان من الشارع الأسفل ، والدور الثالث يصل إليه الانسان
مباشرة من الشارع الأعلى بواسطة قنطرة تعلو الشارع الأول ، فلا
يتجشم سكانه الصعود درجات كثيرة

اللغة السائدة في برن هي الألمانية ؛ لذلك كنا نجد صعوبات
كثيرة في التخاطب مع أهلها . خرجنا ليلاً للتنزه وتمضية الوقت فلم
نجد لا قهوة ولا محلاً يمكننا الجلوس إليه ، وكلما قابلنا انساناً سأله
فيجبنا بالألمانية ، الى أن عثرنا في آخر أمرنا بياع تبغ فدلنا على
محل يجلس فيه ، قال أنه معدّ لمعتري القوم ؛ فاعتمدناه ، فاذا به قهوة
تحت الأرض يصل إليها الانسان من سلم كثير الدرجات ، فضاقت
نفوسنا منها وتوجهنا الى النزول فقمنا فيه . وفي الصباح ركبنا القطار

الى تون فبلغناها بعد أربعين دقيقة ، وهي قرية يسكنها نحو الستة آلاف نفس ، وبها مدرسة الحكومة الحربية وقصر عتيق ؛ ومنها ركبنا سفينة بخارية الى أنتيرلكن ، فسارت بنا تشقّ عباب بحيرة تون البالغ مسطحها ٤٨ كيلومتراً ، وكنا نتمتع الطرف بما يعلو شواطئها من المباني الشاهقة ، والغابات الخضراء ، والجبال المغطاة بالأشجار والثلوج ، والجسور القديمة التي بقيت شاهداً على استبداد وظلم الأعصر الخالية ؛ وقد وصلنا أنتيرلكن بعد سير ساعتين ونصف من هذا السفر اللطيف

وأما أنتيرلكن فهي من أجمل البلاد التي زرتها في سويسرا ، بها من السكان نحو ٥٣٠٠ نسمة ، وهي واقعة بين بحيرة تون وبحيرة برينس ، بها كثير من السياح للطف هوائها ، واعتدال جوتها ، وزخرف نزلها ، وحسن مناظرها ؛ فاذا سار الانسان في أهم شارع فيها ، وهو شارع الجوز ، رأى الجبال تحيط به من كل مكان ، بعضها قد تغطى بحلة خضراء ، وبعضها قد كساه الثلج حلة بيضاء ، والآخر قد ناطح السحب فتقطعت عليه بشكل يهر الناظر ؛ وقد علا هذه الجبال جبل (ينجفرو) فارتفع عنها بقمته الى السماء ، كأنه رئيسها كلها أو المقدم عليها ، فسبحان الخلاق العظيم

وبعد أن أمضينا يوماً وليلة بأنتيرلكن ، سافرنا منها في سفينة

بخارية الى برينس فبلغناها بعد ساعة قطعنا فيها بجيرتها البالغ مسطحها نحو ستة آلاف الفدان؛ وهي ليست بالبلد المهمة ، وعدد تكثرفيها صناعة الخشب التي امتازت بها سويسرا عن غيرها من الأقطار . ثم قُمنّا منها عن طريق السكة الحديدية قاصدين لوسرن ، فوصلنا اليها في نحو الأربع الساعات

لوسرن - هي من أجمل وأهم مدن سويسرا ، بها من السكان نحو ٢٦٥٠٠ ، وهي واقعة على بحيرة كتركاتون (الأربعة الأقسام) ، حيث يخرج نهر الروس المشهور بسرعة الحركة واخضرار الماء . وقد أمضينا بها أياماً كانت من أحسن أيامنا في سويسرا : هواء جميل ، وطقس معتدل ، ومنظر حسن . والمدينة مشيدة على شاطئ النهر ، تجمع بينها أربع قناطر ، وتمتد عليها أرصفة على غاية من النظافة والاتقان ، لا سيما رصيفي شويزير هوف ، وناسيونال ، وقد غرست فيهما الأشجار ، وأشرفت عليهما الفنادق الفاخرة والعمارات الشاهقة ، وامتد النظر منهما الى الجبال العظيمة التي تكتنف المدينة ، لا سيما

جبل پيلات ، وجبل ريجي

وأما أهم آثار لوسرن فنخص بالذكر منها : كنيسة سان ليچيه ، وأسد لوسرن الذي نحت في الصخر على طول تسعة أمتار ، تخليداً لذكرى الضباط والعسكر السويسريين الذين قتلوا سنة ١٧٩٢

وهم يدافعون عن قصر التويلرى الذى كان به ملك فرنسا بياريس ؛
وقد مثل الأسد مطعوناً برمح ، وهو يعالج سكرات الموت ، ويدافع
عن درع عليه رمز ملك فرنسا

ويجوار هذا الأثر حديقة كبيرة ، قد جمعت فيها أشياء كثيرة ،
تدل المتأمل على كيفية تكوين الجبال والصخور ، ونحو ذلك من
الفوائد العلمية ؛ ثم دار المحافظة ، وبها متحف تاريخي ؛ ثم المتحف
العام ، ودار الكتب ؛ فمتنزه الجوتش الذى يبلغ ارتفاعه ٥٢٥ متراً ،
ويصل إليه الانسان فى عربات معلقة بالسلاسل على قضبان مرتكزة
على منحدر ، بحيث انه عند ما ترتفع احدهما تنخفض الأخرى

والسائر فى شوارع لوسرن ، يرى بها كثيراً من البيوت العتيقة
التي بنيت فى القرن السادس عشر ، وحافظ القوم عليها الى هذا
اليوم لفائدة تاريخية . وقد يندر فى لوسرن وغيرها من مدن
سويسرا ، ما عدا جنيف ، وجود قهوات مستقلة عن الفنادق ، بل
ان أغلبها تابع لهذه المحلات ، وقائم فى داخلها

ولما كنا فى لوسرن عزمنا على صعود جبل الريحى ، فركبنا
سفينة وسرنا فى بحيرة الأربعة كنتون من لوسرن لقرية ثزنو ؛
وهذه البحيرة زرقاء اللون ، يبلغ مسطحها نحو الأربعة وعشرين
ألف فدان ، وهى كثيرة التعاريج ، قصيرة العرض ، يكثُر فيها

هبوب الريح الشديدة ، وشواطئها خضراء ، ترتفع عليها القصور والبيوت ، تعلوها الجبال الشاخنة ، ولا سيما جبل الپيلات ، وهو مجرد عن الأشجار ؛ وجبل الريحي ، وهو على عكسه ؛ وتحيط بها مدن كثيرة ، بين منازلها ما هو من الخشب على الشكل الذي ألفه أهل هذه البلاد واتقنوا صنعه

وصلنا الى فزنو بعد مسيرة ساعة ، ومنها ركبنا قطاراً خاصاً يصعد منها الى جبل الريحي ؛ وهذا القطار مركب من آلة بخارية وعربة واحدة تسع ستين شخصاً ، ويصعد على قضيبين ، بينهما قضيب ثالث ذو أسنان ، تترادف عليها ثنانياً الترس المركب في القطار فتمسكه عن التقهقر . وانحدار الخط عظيم جداً ، حتى انه في بعض النقط يصل الى ٢٥ درجة ، ويجوز على فناطر يبلغ ارتفاعها عن الأرض نحو المائة متر الى أن يصل الى قمة الجبل ، وهي المعروفة بريحي كولم على ارتفاع ١٨٠٠ متر بعد أن يمر على عدة محطات بها فنادق كثيرة للمصيف . وهذا الجبل مغطى بالأشجار ، تكثر فيه المراعى والأبقار الثمينة ، وقد علق في رقابها الاجراس لئلا تضلّ ، فهدى اليها الراعى

وكلما كان القطار يرتفع ، كانت المناظر تتغير أمام أعيننا ، ولكن بعد ان صعدنا الى ألف متر اشتدّ البرد علينا . ولما انتهينا

الى قمة الجبل تغيرّ الجوّ، وتغطى الجبل بالسحاب، حتى صرنا لا يرى بعضنا بعضاً على مسافة قريبة، وأحاطت بنا السحب، واشتدت الرطوبة، واینما وجهنا نظرنا لا نرى إلاً بخاراً أبيض؛ فنزلنا بعد ان كتبنا بعض رقاع لاختواننا بمصر، وضعناها في بوسته الجبل؛ وأثناء نزولنا اعتدل الجوّ، وأشرقت الشمس خلف الجبل، فكان منظرها من أحسن ما يرى؛ فتارة كانت تنفض على قسم من البحيرة لوناً فضياً، وتارة تلونه بلون ذهبي، أو تتخلل الغابات، فتنبعث عنها الأشعة على أشكال غريبة

ثم ركبنا السفينة عائدين الى لوسرن وقد مالت الغزاة للغروب، فكست الجبال حلة ذهبية، ثم غابت خلفها حتى لم يبقَ منها إلاً ما هو شبه الهلال، ثم النقطة الصغيرة التي اختفت، ولم يبقَ بعد إلاً شفقٌ احمرُّ، يقابله من الجهة الاخرى سحاب أسود. وكان الركاب على اختلاف نحلهم وملهم ينظرون صامتين الى هذا المنظر العجيب، سكوتاً كأن على رؤوسهم الطير، الى ان بلغنا لوسرن

ثم ركبنا القطار من لوسرن قاصدين زورنخ، فوصلنا اليها بعد ساعتين في السكة الحديدية، وهي بلدة كبيرة بها ١٥٨٠٠٠ ساكن، وهي واقعة على شاطئ نهر لمات، على مقربة من البحيرة المسماة باسمها، وبها مدارس عظيمة، ومحلات كثيرة للصناعة، وخصوصاً

صناعة الحرير والقطن والآلات، وبها ترامواى كهربائى يمر فى أغلب شوارعها؛ وصلناها والأمطار تهطل، ولكن ما لبثت الغيوم ان انقشعت، وصفا الجو، فتمتعنا بروية آثارها، وجميل منظرها بين الجبال. وأحسن ما يهيم الساحل زيارته فيها، الفسقية القائمة بميدان المحطة، ثم شارع المحطة وفيه البورصة، والمخازن التجارية العظيمة، والمصارف الكبرى، وكنيسة مارى بولس، وبها ساعة كهربائية طول عقاربها نحو الخمسة الأمتار؛ ثم رصيف الألب، ومنه يتمتع الانسان بمنظر جميل، ثم التونزال، وهو بناء شاهق خصص للتمثيل وسماع الموسيقى، وبه بهو يسع ١٥٠٠ متفرج، ثم قنطرة الرصيف، وقنطرة الكنيسة، ودار الكتب وبها ١٣٠٠٠٠ مجلد و ٥٠٠٠ كتاب مخطوط ومكاتب لمشاهير الناس؛ ثم متحف العاديات، والكنيسة الكبرى بزخرفها، والمتزه العالى، ومنه يمتد النظر الى بُعد شاسع؛ ثم دار العلوم وبجوارها المهندسخانة، وبها ١٠٧ اساتذة و ٨٠٠ تلميذ؛ ثم المتحف الأهلئ، ودار السلاح، فحديقة النبات

وبعد ان استرحنا بهذه المدينة العامرة، ركبنا القطار الى شفهورز، فوصلنا اليها بعد ساعة، وهى مدينة صغيرة بها ١٤٣٠٠ ساكن، وبها كنيسة قديمة، وقصر معروف بقصر مونو، شيد فى

القرن السادس عشر، وهو أشبه بقلعة حاكمة على البلد، يصل إليه الانسان من سلم به درجات عديدة، ويبلغ سمك حيطانه خمسة أمتار، وأما قبابه فبنيت بطريقة لا يؤثر فيها جل المدافع. وقد وجدنا به سيدة تدل الناس على أسراره، ولكنها تتكلم بالالمانية، فشكرناها. وان لم نكن فهمناها. ثم ركبنا عربة أوصلتنا الى نزل شويرزهوف، وهو على مرتفع مطلقاً على نهر الران، فقضينا الليل فيه لمشاهدة الشلال

شلال الران — هو أعظم شلال في اوروبا، حيث يبلغ ارتفاعه ٣٥ مترًا في عرض ١١٥، يتقدمه قنطرة طولها ١٩٢ مترًا، ويكتفه من الشمال قصر لوفن، ومن اليمين قصر ورت؛ وماؤه يتدفق من بين الصخور بسرعة هائلة، فيعلوه الزيد، ويسمع له صوت عظيم، وقد سُلط عليه من النزل الذي كنا فيه أشعة ملوثة، فكان الماء يبدو تارة أحمر قانيًا، وأخرى أزرق، وهلمَّ جرًا، وكذلك القصر الذي يجواره مما يدهش الناظرين. وبعد ان زرنا الشلال مرة أخرى نهاراً رجعنا الى لوسرن، ومن هناك ركبنا القطار قاصدين ايطاليا عن طريق سان جوتار

طريق سان جوتار — أنشئت هذه السكة الحديدية الجبلية بين سنة ١٨٧٢ وسنة ١٨٩٦، وبلغ ما أنفق عليها نحو العشرة

الملايين من الجنيهات - وهي خط لطيف ، عرباته كلها من الدرجة الأولى ، مقروشة بالقطيفة ، وفيه ما يلزم للانسان من مأكل ونحوه ، يسير فيه الراكب متمتعاً بالمناظر الجميلة ، يشاهد جبلاً مرتفعة يتلوها وديان منخفضة ، جبال خضراء ، تسيل منها عيون بيضاء ، تتكوّن منها بحيرات وشلالات ؛ ثم يمر القطار على قناطر فيدخل في قلب الجبل ، ثم يخرج فيسطع نور الشمس عليه بعد احتجابه

وأقصى ارتفاع لهذا الخط ١١٥٤ متراً عن سطح البحر ، وبه ٧٩ نفقاً في الجبل ، يبلغ مجموع طولها ٤٦ كيلو متراً ، بينها نفق كبير طوله وحده ١٤٩٩٨ متراً ، يقطعه الاكسبريس في ١٦ دقيقة ، ارتفاعه سبعة أمتار في عرض ٨ أمتار ، وكله مبنى ، يستشعر الانسان وهو في جوفه أنه في عالم آخر ، ويحس يبرد شديد ؛ وقد اشتغل فيه ٢٥٠٠ عامل مدة سبع سنوات ونصف حتى أتموه

ولما اقتربنا من الحدود الايطالية ، ابتدأنا نتألم من حرارة الجو ، وأسفنا على فراق أرض سويسرا ، هذه البلاد التي وهبها الخالق جمالاً فائقاً ، وجاذبية مخصوصة ، فهي أولى البلاد بالتنزل والتشبيب ، وأجدرهن بأن تكون وطناً للشعراء

ولما اتهينا الى الحدود ، حضر عمال الجمر الك الايطالي لتفتيش متاعنا في القطار ، فرأينا منهم من اللطف عكس ما كنا نسمعه

عنهم، فحمدنا المولى على ذلك، وأخذنا نتأمل في حقول شمال إيطاليا،
وإذا هي أشبه شيء بأرضنا المصرية من حيث اتساع الوادى، ونوع
الزراعة، وكيفية توزيع الري، والترع والمصارف، وشكل البناء،
ووجود الذرة والكروم، مرتفعة على «التكعيب» وغير ذلك،
فكان لذلك تأثير عظيم في نفوسنا، مما حرك في قلوبنا عوامل
الشوق الى مشاهدة الوطن

وقد مررنا في طريقنا على مونزا، وهى بلدة صغيرة، بها نحو
١٨٥٠٠ ساكن، وبها قصر ملوكي، وهى التى قتل بها ملك إيطاليا
السابق. ثم وقف بنا القطار على محطة ميلان، فنزلنا بها بعد مسير
ست ساعات من لوسرن، وعزمنا على الاستراحة فيها ثلاثة أيام

نزهة في ايطاليا

ميلان هى مدينة من أهم مدن ايطاليا وأغناها، بها ٤٢٦٠٠٠
ساكن، وتكثر فيها صناعة الحرير، وأهلها يحبون التكلم باللغة
الفرنسية، ويميلون الى تقليد أهل باريس فى أخلاقهم وآدابهم،
وربما كانوا أرق سكان ايطاليا جميعاً

وهذه المدينة بها آثار كثيرة، وعمارات شائقة، نذكر منها
ميدان الدوم، وبه تمثال فيكتور عمانوئيل ملك إيطاليا السابق،

وتطل عليه الكنيسة الكبرى ، وهي من أكبر كنائس الدنيا ، حيث يبلغ مسطحها ١١٧٠٠ متر مربع ، وكلها من الرخام الأبيض ، يحيط بها ٩٨ برجاً ، و ٢٠٠٠ تمثال من المرمر ؛ وقد استغرق بناؤها نحو الخمماية سنة ، ويبلغ ارتفاع منارتها ١٠٨ أمتار ، ويرى الانسان في داخلها تماثيل وصوراً كثيرة ، وهي أبداع معبد رأيتُهُ

ثم على الميدان نفسه قصر الملك ، وقد لاحظت أن له تقريباً في كل مدينة قصرأ ؛ وعمارة فيكتور عمانوئيل ، وهي عبارة عن بناء ضخم ، قد شيد باتقان وزخرف ، جمعت فيه أهم المخازن والقهوات العمومية ، يخترقه شارع طوله ١٩٥ متراً ، في عرض ١٥ مفروش كله بالرخام ، ومغطى بالزجاج على ارتفاع ٢٦ متراً . ويبلغ عدد الكنائس في ميلان ثمانين كنيسة ، ولكن أهمها الكنيسة الكبرى التي ذكرناها

ومن الآثار التي تهم رؤيتها دار الكتب ، وبها ٣٠٠,٠٠٠ مجلد والى كتاب مخطوط ، عدا الرسوم والأوسمة العديدة ؛ ثم المتحف العام ، ومتحف بلدى ، والمستشفى ، وهو من أعظم مستشفيات الدنيا ، ودار الكتب المعروفة بامبروزيني التي أسسها بروميه سنة ١٦٠٩ ، ووضع فيها ١٦٠٠٠ ، مجلد ، و ١٥٠٠٠ كتاب مخطوط ، وتساوير بديعة . ثم القصر ، وكان لعائلة فيسكونت قديماً ، وهو الآن

معداً لقامة العساكر ، وقوس نصر سملون وهو من بناء نابليون الأول ،
والمحل المعد لألعاب الحيوانات ، وهو أيضاً من بنائه يسع ٣٠٠٠٠
متفرج ، وبه رسوم يراها الانسان فيحسبها لدقة صنعها تقوشاً بارزة
في الجدران . ثم الحدائق العمومية ، فالمقبرة الأثرية وهي ممتدة على
مسطح مائة فدان ، وبها كثير من القبور المزخرفة ، وكثيراً ما ترى
رسم الميت منقوشاً فوق قبره ، ومنحوتاً في الحجر والرخام ، وأمامه
صورة أو تمثال بنته أو زوجته أو ولده ، يكون عليه وينتجبون
وهم لا يزالون على قيد الحياة ؛ وبهذه المقبرة فرن معد لإحراق
الموتى ، تختلف مدة الحريق فيه من أربعين دقيقة الى ساعتين
بنسبة الاجرة التي يدفعها أهل الميت ؛ فان هم أشفقوا عليه ، احتدمت
ناره فاحترق سريعاً ، وإلاً فرويداً رويداً . وقد وقف أحد الأغنياء
مبلغ ١٥٠٠٠٠ فرنك لإحراق موتى الفقراء مجاناً احتساباً لوجه الله ،
فسبحان من وهب كل انسان عقلاً يرشده

وكان وصولنا الى ميلان في اليوم الثاني لصدور الحكم على قاتل
الملك بالحبس المؤبد بحيث لا يرى انساناً ، ولا يكلم آدمياً ؛ وهو
عقاب صارم ، استبدلت به ايطاليا عقوبة الاعدام التي حذفها من
قوانينها ، وقل ان يمكث الجاني في هذا الحبس سبع سنوات دون
أن يموت أو يجن ؛ وقد قضى أخيراً قاتل الملك على نفسه فاتحر .

وكان البائعون ينادون في الطرق على رسوم الملك المقتول وزوجته،
والملك الجديد وقرينته ، ونحو ذلك من الأشياء المتعلقة بالحادث
الذى ما زال حياً في النفوس

وقد زرنا ايضاً تياتروسكالا المشهور وبه تماثيل الموسيقيين
المشهورين ، بينها تمثال فردي الذى مات قريباً ، وهو محل متسع مبنى
على قواعد هندسية ، بحيث يسمع فيه الصوت واضحاً من كل مكان ،
وقد توفرت فيه أسباب الراحة للمتفرجين ، فترى خلف كل مقصورة
مقاعد للاستراحة ، وماء وخلافه مما يحتاج اليه الانسان

وقد لاحظت أن أغلب التعامل هو بالعملة الورق ، وهى
منخفضة القيمة لكثرة ما صدر منها ، بحيث ان الورقة الفرنسية
ذات المائة الفرنك تساوى ١٠٧ فرنكات من الورق الايتالى . وأما
المعيشة ، فهى على العموم فى ايطاليا أرخص منها فى فرنسا ، وأجر
العربات زهيدة ، والجلد المصنوع يباع بأقل بكثير من مثله بفرنسا .
كل ذلك دليل على أن هذه أغنى من تلك ، ويدل على ذلك أيضاً
ان الدخول فى المتاحف الفرنسية بالمجان ؛ وأما فى ايطاليا فلا بد من
دفع اجرة لذلك

وقد خلّد نابليون فى ميلان ذكرى كبيرة لاسمه ، بما تركه من
الآثار التى يمر عليها الانسان فى كل ناحية منها . ومع أن أهلها

أشرف أخلاقاً من غيرهم ، ولكن ليس فيهم هذا الشمم الفرنسي ،
ومتى وصلهم الانسان ببعض النقود كانوا طوع اشارته في كل أمر
بدون انفة ولا كبرياء

أقمنا بميلان نحو الثلاثة الأيام ، ومنها ركبنا القطار القائم الى فينيز
أو مدينة البندقية ، فشهدنا بين عرباته وعربات سكك سويسرا
فرقاً عظيماً من حيث النظافة والراحة . وكانت الغيطان التي نمر بها
مزروعة بالذرة والبرسيم ، وكنا نتأخر كثيراً في المحطات ، ولا سيما
في فيرون بحيث يفوت الميعاد ، وناظر المحطة يصفر ، والوابور
لا يتحرك ، فذكرني ذلك ما يحصل في بعض الخطوط الفرعية
في بلادنا

ولما اقتربنا من البندقية وجدنا ضواحيها كضواحي الاسكندرية ،
بما يخترقه الانسان من بحيرات مالحة ؛ ثم سرنا مسافة طويلة على
جسر يكتنفه الماء من كل ناحية ، حتى بلغنا المحطة بعد مسير ست
ساعات ونصف ، وكان ذلك في مساء الأحد ٢ سبتمبر سنة ١٩٠٠

مدينة البندقية

مدينة غريبة في بابها ، قديمة العهد ، يسكنها الآن نحو المائة
والستين ألف نفس ، نالت من المجد في زمن استقلالها وقيام

جمهوريةها ما لم تنله سواها ، لا سيما بعد ان ساعدت الصليبيين ،
وفتحوا لها طريق الشرق ، وانتشرت سفنها على شواطئ الشام
ومصر ، وامتدت سلطتها على كريد وقبرص ، وبلغ عدد مراكبها ٣٣٠٠
يقودها ٤٠٠٠٠ بحري ، ولكنها بعد هذا العز ابتدأت في الاضمحلال ،
لا سيما بعد اكتشاف أمريكا ، والوصول الى الهند عن طريق رأس
الرجا الصالح ، فانفصلت عنها أملاكها ، وانزع منها الترك جزيرة
قبرص ، ثم استولى عليها نفسها نابوليون الأول سنة ١٧٩٢ ،
وبعد ذلك ضمت الى النمسا ، وخرجت عليها في سنة ١٧٩٨ ، ثم
انضمت الى ايطاليا في سنة ١٨٦٦ ، وهي مشيدة على ١٠٧ جزر في
وسط البحر ، يفصل بينها ١٤٩ ترعة تقوم فيها مقام الشوارع في
المدن الاخرى ؛ وأهم هذه الترع الترع الكبرى التي يبلغ عرضها
نحو السبعين متراً ، وتعلوها قنطرة رياتو المشهورة المصنوعة من
الرخام . وأهم الآثار الموجودة بها كنيسة ماري مرقص ، وبها ٥٠٠
عامود من الرخام ، وكثير من النقوش القيشانية اللطيفة ؛ وقصر
الدوجات ، وهم حكام المدينة الاقدمون ، وبه كثير من الرخام ؛
وهو بناء عظيم ، مطل على البحر ، وبه رسوم غاية في الجمال ، تدل
هياته العمومية على عظم الجمهورية التي كان هذا القصر مركزاً
لحكومتها

على أنه اذا كانت هيئة طبقاته العليا تدلك على أهمية هذه الجمهورية ، فالسفلى تنبئك بما كانت عليه من الاستبداد والظلم ، لأنك تجد تحت القصر حبساً فظيماً كان يلقي فيه المسجونون ، فيقضون حياتهم فى جوف الارض ، تأكلهم الرطوبة دون أن يروا النور أو يكلموا أحداً ؛ واذا خرجوا منه ، فلا عداهم والقاء جثثهم فى البحر من أعلا قنطرة التأوه المتصلة بالقصر

ويجاور هذا القصر من جهة ميدان صغير ، وفيه عامودان عظيمان ، يعلو أحدهما تمثال مارى تادرس ، والآخر أسد ، وهو رمز عن مارى مرقص ؛ ومن الجهة الأخرى الميدان الكبير ، وهو محل اجتماع أهل البلد ، تحيط به المخازن المهمة الكائنة فى أسفل القصور التى كانت معدة فى سالف الأيام لاقامة نواب الجمهورية ، وصار بعضها الآن مخصصاً للملك ، والبعض لمخلات التجارة

ويكثر الحمام فى هذا الميدان ، فيمر الانسان عليه لا يخاف ولا يتحرك ، لأن الناس تعودوا أن لا يؤذوه ؛ بل تراهم يلقون اليه ما استطاعوا من الحب لغذائه . ثم الحديقة العمومية ، فالقصور المتعددة المنتشرة فى جميع ارجاء المدينة ، فالمتحف والتياترو ، والمدرسة البحرية ؛ ثم الكنائس العديدة ، لا سيما كنيسة مارى بولص وبها قبور الدوجات

وأما صناعة البلد فتنحصر على الأخص في الزجاج، والمرايا،
والشمع، والدخان، والآنية، وأثاث المنازل، والقيشاني، والبلور
وعلى مقربة من المدينة محلات للنزهة بها الحدائق والرياض،
أهمها الليدو، وفيه عدة قهوات ومطاعم، ومحلات للهو والطرب.
هذا ولوجود المنازل في وسط الماء، فالهواء معتدل، ولكن الرطوبة
شديدة؛ وأحسن وقت يتمتع فيه الانسان بمناظر المدينة هو الليل،
حيث تسير المراكب في وسط الترع متلاثة بالأنوار، وفيها
الموسيقيون يعزفون بآلاتهم، والمغنون يترنمون بالحانهم، مما يذكر
الانسان بما ألفه الكتاب، وأنشأه الشعراء من حوادث العشق،
وغريب الراويات التي جعلوا مدينة البندقية مرسحاً لها؛ الآن
صدر الانسان يضيق عند مروره أمام القصور العظيمة التي شيدها
الأشراف في غابر الزمان، وأخنى عليهم وعليها صرف الحدّثان،
فأصبح بعضها مشغولاً بالمعامل، وبعضها بالنزل وبعضها بالمتاحف،
وبعضها أضحى ملكاً لأغنياء الأجانب، ولم تحفظ للذين ابنتوها
سوى الاسم؛ فيقول لك المراكبي وهو مار أمامها، هذا قصر فلان،
وذاك شاده فلان

عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذلك الدهر حالاً بعد حال
فسبحان من له الدوام

ومما لاحظتُهُ في هذه المدينة ، تعود كثير من أهلها لبس شال كبير فوق ملابسهم، يشتملون به كما هي العادة الشرقية. وقد ذكّرتني كثرة الكنائس الموجودة التي بناها الدوچات مع استبدادهم ما كان يعمله بعض المماليك في مصر من اغتصاب أموال الناس وبناء المساجد؛ كما لاحظتُ فساد ذمة أهل البلد وضعف مروءتهم، حيث يطلبون من المشتري أضعاف قيمة السلعة، ولا سبيل معهم الى الوصول للسعر الحقيقي إلا بعد طول المساومة وشدّة العلاج؛ وقد يتربّب الواحد منهم وقوف الانسان أمام حانوته، فيخرج اليه ويضايقه حتى يُدخله فيبيعه ما استطاع بما استطاع من الغش؛ وقد يتخذ بعضهم طريقة أخرى، فيُرسل أناساً يتعقبون السياح ويرغبونهم في زيارة المعامل، فإذا دخلوها طاف بهم أصحابها في كل مكان، فيضطرّ المتفرّج الى ابتياع الأشياء، وهذه طريقة من طرق كسب المعيشة.

ولما كان يوم الثلاثاء ٤ سبتمبر، قمنا في الساعة الحادية عشرة مساءً من مدينة البندقية، وركبنا سفينة من سفن شركة اللويد النمساوية، فوصلنا الى تريستا في الساعة السادسة صباحاً

تربسنا

هي مدينة محصنة ، وأهم ميناء تجارية نمساوية ، وبها من السكان خمس وسبعون ألف نفس ؛ وأهم ما فيها مدرسة المهندسخانة ، والمتحف ، وشارع الكورسو ، والقلعة ، والكنيسة ، والتياترو ، وقصر شركة اللويد ، وسراى البلدية . وأما صناعتها فأهمها الصابون ، والقטיפفة ، والسكر . وهي مدينة نظيفة ، يظهر من حالتها ومركزها الطبيعي أن سيكون لها مستقبل عظيم ، وأهلها يغلب عليهم التكلم بالتيانية ، وهم على غاية من اللطف وحسن الأخلاق . وقد قمنا منها يوم الأربعاء ٥ سبتمبر على إحدى سفن شركة اللويد ، ومررنا في طريقنا بمدينة برندزى الايتالية ، فوقفنا بها ساعتين ؛ وهي مدينة قديمة العهد ، يسكنها نحو ١٤٥٠٠ نفس ، وبها عامود مكتوب عليه أنها عمرت بعد أن خربها العرب ؛ وبها كنيسة عتيقة ، ولكنها أقدر المدن التي شاهدها ، ومع أن شوارعها مبلطة ، وبها النور الكهربائي فهي ملأى بقشر البطيخ والذرة ، وأنواع القاذورات ؛ يكثر فيها الذباب ، وترى كثيراً من أهلها مرتدين الملابس الحقيرة ، وأطفالها حفاة الاقدام ، كثيرو السؤال ، لو رميت اليهم بقرش اتقضوا عليه والظافر من أخذه ولو شجت رأسه ؛ ويظهر على سكانها فساد الاخلاق

وأما ضواحيها نخصبه التربة، تكثر فيها الفاكهة، لاسيما الخوخ، والعنب، والتين، والبطيخ. وقد تركناها وسارت بنا السفينة تشق عباب البحر، والشوق يزداد في قلوبنا لرؤية الوطن، والفكر يجول فيما رأيناه من البلاد، وما شاهدناه من الأخلاق، والنفوس تتنى أن يسلك أهل وطننا الطريق الذي سلكه الغرييون من قبلهم، حتى يجعلوا العلم نبراساً يستضيئون به في أعمالهم، وأن يتحدثوا ويجهدوا للوصول الى غاياتهم، تاركين الحسد والبغضاء، متمسكين بالثبات والاتحاد لتحسن أحوالهم، وتنتظم أمورهم، والله تعالى قادر أن يرشدهم الى ما فيه الصواب

ولم نزل كذلك، والبحر هادئ، والهواء معتدل، حتى وصلنا الى الاسكندرية صباح الأحد ٩ سبتمبر سنة ١٩٠٠، ففرحنا بلقاء الأهل والأحباب، وحمدنا المولى على حسن الاياب فألقت عصاها واستقرَّ بها النوى كما قرَّ عيناً بالاياب المسافر

الاصلاح الحقيقى

اذكر فى هذه العُجالة بعض الكلام فى المعارف ، وقد سبقنى فى هذا الباب كثير من جهابذة العلماء الفاضلين فشرحوا فضل العلم ، وأبانوا مبلغ أثره بلسان أفصح من لسانى ، وقلم أبلغ من قلمي ؛ فلا حاجة إذاً الى إعادة ما أوردوه من ذلك

ولكن بما أن وطننا اليوم أضحي مناطاً للتعديلات والنُظُم ، فقد أحيت أن أثبت لكم أن هذه التعديلات وتلك الأنظمة لا يكون لها أثر صالح إلا إذا بنيت على أساس مكين ، وذلك الأساس هو نشر المعارف بين أبناء البلاد

نعم تلك حقيقة أقرها العقل ، وأثبتها التاريخ ، فلو أجاننا الطرف فى تاريخ من سبقنا من الأمم ، لوجدنا أن سعادة الدولة متعلقة بنشر المعارف بين أبنائها ؛ فانه إذا كانت الدولة عظيمة قويّة ، مكن العلم لها فى الأرض ، وهداها أقوم السبل الى ارتفاع شأنها وبسطة سلطانها ، وازدياد عمرانها ؛ ولكنها إذا لم تهتد فى سيرها على سنا العلم ، أظلم عليها طريق الحياة ، فلا تزال تتنكب طرق العافية حتى تردى فى هوة الاضمحلال والزوال

فالقوة المادية وحدها لا تكفى اذا لم يكن لها عون من العلم

يثبت أقدامها ، ويمدُّ لها في أسباب المنعة والبأس والسلطان
العلم في الدولة كالعقل من رأس الإنسان ، فإذا كانت الدولة
قويةً ، علمها كيف تستعمل قُوَّتها ؛ وإذا كانت ضعيفةً ، علمها كيف
تبنى المجد ، وتنزل منازل الكرامة ؛ ولنا فيما جرى على العباسيين
والعثمانيين أعظم دليل على ما تقول :

فالعباسيون الذين قد ذاع صيتهم ، وسما مجدُّهم ، وجُيِّت لهم
أطراف الأرض في عهد الرشيد وابنه المأمون ، لم يتم لهما ذلك إلاَّ
لأنهما استضاءا بنور العلم ، فأخضرت أفنانه ، وأينعت أغصانه في
الدولة ، فبهر جميع ملوك الأرض ، وسعى كل منهم يتقربون زلفى الى
هؤلاء الخلفاء

ثم لما كسدت سوق العلم في الدولة ، وطاف عليها طائف من
الفتن التي منشؤها الجهل وسوء الرأي ، تصدَّعت أركانها ، وتهدم
بنيانها ، وأذنت شمسها بالمرغيب

والعثمانيون الذين انتشروا في الأرض ليوثًا كواثر ، فثلثوا عروشًا
وأخضعوا ملوكًا ، وملكوا أممًا ، وسادوا البلاد ، وأخذوا بنواصي
العباد ؛ فإذا جرى لهم ؟

انهم لم يقتدوا بالعباسيين ، ولم ينشروا لواء العلم بينهم حتى نشره
ليستفيدوا في فتوحهم ، ويتمتعوا بسلطانهم الذي لا تكاد تغرب

الشمس عن أقطاره، فسرعان ما نزعنا الأمم التي دانت لهم الى
الفتن، وشقت عصا الطاعة، وليس لهم من القوة ما يكفل لهم
تقرير النظام على وجهه، فخرجت بهذه الوسيلة من بين أيديهم أقاليم
كثيرة

وإذا تحولنا الى وطننا العزيز، رأينا في تاريخه من العبرة ما رأيناه
لمن خلا من العباسيين والعمانيين؛ وإذا أمعنا النظر في حالته الحاضرة
والتمسنا أنجع الدواء لدائه، لما أصبنا غير العلم، فان داءه مهما تنوعت
مظاهره ليس إلا الجهل

يشق عليّ وإيم الله أن أقول ذلك، ولكن من لم يعرف حقيقة
دائه، جدير به أن لا يهتدى الى دوائه

نعم ان فينا طائفة من الافاضل الذين ارتضعوا أفويق العلم
واستصبحوا بنوره، ولكن أين يقعون من جميع أبناء الوطن
وهل يقال في بلد يعدُّ سكانه بالملايين ان للعلم نصيباً فيه، اذا
انحصر العلم الصحيح — على الاكثر — في أقل من ألف رجل
من ابناؤه

تحتاج بلادنا الى اصلاحات جمة، ولكن تلك الاصلاحات
— كما قلت لك في صدر هذه المقالة — لا تأتي بالثمرة المطلوبة الا
اذا عضدت بنشر المعارف؛ وأي ثمرة تُرجى من اصلاح لا يكون

المكلفون به والقائمون عليه مدركين لكنهم ، ولا عالمين بالقصد منه ؛ فهو اذا لم يأت - على هذا - بأشد الاضرار ، فلا يكون له أثر من الآثار

ليس يتسع هذا المقام لذكر جميع الاصلاحات اللازمة ، ولكنني أذكر بعض ما يشكو منه عقلاء المصريين ، لاثبت أن المعارف هي أنفع مرهم لجراحات هذا البلد . وأقصر القول في ذلك على مسألتين :
- الخدمة العسكرية - واستخدام الأجانب في المرافق المصرية
الخدمة العسكرية - سمعت كثيراً من اخواني يلغظون بمسألة حدثت في مصر منذ مدة ، وهي أن امرأة خرّت ميتة عند ما علمت أن ابنها قرع له في العسكرية ، ويأسفون لذلك ، ويقولون إن المصريين عارون عن الوطنية ، متجردون عن كل محبة لبلادهم ، ويسبون تلك المرأة التي أشمتت بنا الغرباء . وأما أنا فكان أسفي على ما وقع لها لأنها جاهلة معذورة ، فأين هي من معرفة حب الوطن وادراك واجباته ؛

أتراها لو علمت وأخذت من عهد نشأتها بالتهذيب ، أكان يقع منها ما وقع ، حتى تصبح الأمة بها وبأمثالها عرضة لسخرية الغير ؛ اللهم لا . فانتشار المعارف إذاً يرفع مستوى الأفكار في الأمة ، ويثبت وطنيتها ، ويكف الغير عن الاغارة على حقوقها ؛ وم

للعلم من الفوائد التي تعود على الأمة أديباً ومادياً بأبلغ النجاح في
هذه الحياة

استخدام الأجانب في المرافق المصرية - ذلك أمر شكا منه
الصغير والكبير ، والعظيم والحقير ، ولكن أى وسيلة للخلاص منه
الأ وجود مصريين مهذيين ، قادرين على أن يحلوا محل الأجانب ؛
وهل يكون ذلك إلا بالتعليم ، فإن الأجانب لم يولدوا متعلمين ، ولم
تؤثرهم الطبيعة بعقول أذكى من عقول المصريين ، ولا يَفِظَنَ أعمى
من فِظَنَهم

أترانا نشكو من وجود الأجانب بيننا ونحن باهمالنا مساعدوهم
على ذلك ؟ فلمَ لا ندرس ما درسوا ، ونخدم بلادنا حق خدمتها ؟
ولا ينحني على فطنة القارئ ما وراء ذلك من الإصلاح ، وتخفيف
وطأة النفوذ الأجنبي ، وتأيد سلطة أبناء البلاد وتقديمهم . فإن لم
نعمل فقد حق علينا أن نطأطأ الرؤوس تحت النير الأجنبي ، وأن
يتقاص عنا ما بقى لنا من آثار السلطة والوطنية - فإن الأجنبي ان
أتى ببعض الإصلاح ، فليس ذلك إلا إصلاحاً وقتياً ، اذا شاء إيقافه
استقال من مركزه ، وعادت الحال الى ما كانت عليه . وأما اذا كان
العاملون من الوطنيين ، وكانت المعارف منتشرة في البلاد ، فلا ينحى
عامل إلا وقد حل محله من هو مثله ، أو أكثر كفاءةً وتدريباً

فاذا كان الأمر على ما ذكرنا، فما بالنأ نرى سوق المعارف بيننا
في كساد. وليت شعري هل يحق لنا أن ندعى أن بلادنا في تقدّم،
إذا كان أساس كل تقدّم فيها لم يزل ناقصاً؛ كلاًً

فكل ما نشاهده من الإصلاح، ليس الامادياً أو وقتياً،
وذلك لا يسد في الحياة حاجتنا. فيجب على حكومتنا أن تجري
على خطة السداد، وان ترفع فينا لواء العلم، وتكثر من المدارس في
البلاد، فتؤسس - على الأقل - مدرسة ابتدائية في كل مركز،
ومدرسة ثانوية في كل مديرية، ومدارس عليا للعلوم والفنون في
العاصمة والاسكندرية. وعلى الاغنياء من اهل البلاد أن يبذلوا
المال في نشر العلوم، وأن يعمل كل منا جهده لتهديب اولاده،
حتى اذا تم لنا ذلك، حسنت حالنا، وصلحت بلادنا. وأحسن
طريق واقربه الى غايتنا، هي اجتماع كلمتنا، واتحاد قلوبنا

ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لما فيه خير وطننا، وورقى بلادنا،
وأن يديم لنا أميرنا الأكرم عباساً الثاني، ويجعله خير عضد لتقدّمنا
ونجاحنا، آمين

جمعية التقدم المصري ومجلتها

حضرات أعضاء جمعية التقدم المصري الفرعية بالقاهرة

لايسعني أن أقدر مبلغ فرحي واعتباطي عندما وقع الى أول
عدد من جريدتنا « التقدم المصري » ، فاني قد سبق لي القول في
هذا الشأن مع اخواني أعضاء الجمعية المركزية ، وأجلنا المضي في
ذلك الى ما بعد

ولكن همتمكم القمصاء أبت إلا أن تبأدر باخراج هذا العمل
الجليل من حيز القول ، الى حيز العمل
فحق لكم أجمل الشكر ، وأجزل الثناء

واني لعمر الحق لوائق من نجاح جمعيتنا ، ما دام فيها أعضاء
ذوو حزم وعزيمة وثبات ، مثل أعضائنا في القاهرة ، فان ما بذلوه
من الهمة ، وما صرفوه من العناية ، لدليل على حسن المستقبل
وقد عرضت المجلة على الاخوان فتقبلوها بقبول حسن ، وأحلوها
أكرم الموضع ، وعهدو بي شكر من لهم الفضل في ذلك
وكيف لا وقد أصبحت المركز الذي تتلاقى عنده آراء وأفكار ،

وتنهي إليه آمال كبار، إذ كان أعضاء جمعيتنا وكل فريق منهم يحويه بلد، وأستعابه رُقعة من الأرض، وكان لا بد لهم من جريدة تنشر أفكارهم، وتبث آراءهم، فيتلاقون على البعد، ويتجاوزون على تنائي الديار؛ وتلك منه يجب أن تحفظ لكم أيها الإخوان في تاريخ التقدم المصري

ولقد نحتصوني أنا الفقير من الأثر في تأسيس الجمعية، ما هو حقيق أن ينسب إلى جميع الوطنيين الذين أقبلوا على هذا العمل الجليل، وآزروه وثابروا عليه، حتى تحقق لهم منه ما يرجون. فهم أحق مني بالثناء وأجدر

نعم فالיום ينشر صدر كل مصري عند ما يرى الخطوة الكبرى التي خطاها وطنه في العصر العباسي السعيد

مضى زمن كانت مصر فيه رافعة لواء العلم والأدب، مكتوباً لها السبق على جميع الأمم في التجارة والصناعة والزراعة؛ يختلف إليها الوافدون من كل وادٍ لاقتباس أنوارها، أيام كانت الكنانة موطن المعارف، ومحط رحال العلماء؛ فهي أقدم البلاد مدنية، وأعرقها حضارة، كما تشهد بذلك آثارها البديعة

فصل الاهرام عن بناها، والكرنك والأقصر عن اختطها وأعلاذراها، والأزهر وما درس فيه من العلوم، وفتق فيه من

الآراء - تلك آثار بلي الدهر ولم تبلى ، ولا تزال كل يوم تبكتنا على
إهمالنا ، وتعنفنا على تراخيها وقعودنا عن الاقتداء بأسلافنا ، حتى
همننا في أودية الجهل ، وتسكنا في طرق العماية ، وأصبحنا على
شفير الهلاك ، ونكلنا عن النهوض بما يعلى شأننا ويمصم علينا
تراث أجدادنا ؛ وبتنا ينظر بعضنا لبعض شذراً ، لا ندري الى أى
غاية نحن مصروفون

برانا الأجنبي فيتساءل ، ليت شعري أهؤلاء حقاً أبناء من كانوا
أئمة المعارف وحماة المدنية ؟ كلاً كلاً ، فذلك ما لا يدخل في دائرة
الإمكان ؛

ملكنا الأهواء ، فبذنا مصلحة وطننا وراء ظهورنا ، وآثرنا
منافعنا الخاصة . تفاقم فينا الحقد ، فكدرت نفوسنا ، وتغيرت
قلوبنا . اختلفت كلمتنا ، فضممت قوتنا . تفرق رأينا فأنحلت عزيمتنا ،
وصرنا أمواتاً في صورة الأحياء ، أغراباً في بلادنا ، مزدريين في
بلاد غيرنا

بيننا كنا نهوى من أعلا ذرى المدنية الى أبعدا غوار الحمجية ،
كانت أوروبا تُعيرُ على ما تركه لنا الآباء ، فتهذب من أطرافه بما
يلائم طبيعتها ، وتزيد فيه ما يزيد في قوتها
ولو أهاب بنا نصيح أن انظروا الى هؤلاء القوم ، وما هم عليه

من التقدّم والنجاح، لأجاب أكثرنا : ما هذا؛ أما تدرى أنهم أخذوا ذلك عنّا، وتقلوه عن أسلافنا؛ وليس يدري أن عذره أقبح من ذنبه، وأنه يسجّل على نفسه الإهمال والتفريط، لأنه أضاع مجد الآباء، وتردّى جلباب الجهل والمذلة.

لم نزل على هذه الحال من التدهور والسقوط، حتى قيض الله لنا العائلة الكريمة العيوية، فانتشلتنا من وهدة الانحطاط، وأخرجتنا من ظلمات الجهل الى نور العلم

ولكن لما كان من المستحيل أن تمحو الأعوام دفعة واحدة ما فعلته الأجيال، فقد تواردت الهمم على مواصلة الإصلاح، لولا ما كان يعتريه في بعض الأحيان من الفتور أو الإبطاء، حتى أتى العصر العباسي، وقد أوفى العلم على منازل سعده، وبزغت شمس العرفان في سماء مجده، فاتتبه المصريون من نومهم، وأنشأوا الجرائد الوطنية، وأسسوا الجمعيات العلمية والأدبية، وأحسوا بما هم عليه من التأخر في الصناعة والتجارة، فاستنهضوا الهمم، ودبّ الأمل بعد اليأس. وكان لهم أكبر العون من حزم مليكهم وعزمه

وما كان يليق بنا نحن شبان الوطن أن نتمادى في تناكُّبنا وتخاذلنا، ووطننا يذكرنا بما له علينا من الواجبات، وأميرنا يناضل عن حقوقنا على مدى الأيام والساعات

نهضنا وعقدنا النية على انشاء جمعية التقدم المصرى خالصةً
لخدمة البلاد، وما نطلب بها إلا جمع كلمة محبي الوطن على نشر
المعارف، وتعزيد المشروعات الوطنية على قدر الاستطاعة، فقد
مضى الزمن الذى كان يُعدُّ فيه كل تجمع تعصبًا، وحظينا بالحرية
وافيةً، وأصبح من الواجب علينا أن نستعمل هذه الحرية فى خدمة
مصرنا وأميرنا، وأملنا فى النجاح وطيد

أما الآن، وقد تأسست هذه الجمعية، ودخل فيها الكثير من
الأساتذة الأفاضل، والشبان النجباء، رأيت أن أنشر ما تطمح
إليه أنظارها، وتبجّه نحوه رغبة أعضائها، فأقول :

ان الرجاء معقود بأن يكون لجمعيتنا فى كل مدينة أنشئت فيها
جمعية فرعية محلُّ تجمعٍ فيه الجرائد والكتب المفيدة، يجتمع فيه
الأعضاء وقت الفراغ للسمر والمحاضرة والقراءة؛ فيغنيهم ذلك
عن التردد على القهوات ونحوها، إذ يجدون فيه ما يحتاجون إليه؛
وتلقى فى هذا النادى الخطبُ العلمية والأدبية، على جهة المناقشات
أو نحوها؛ فيقوم بهذا حضرات الأعضاء، أو من يدعونهم من
أرباب الشهرة فى المعارف، ويعاون الأعضاء فى تحرير مجلة التقدم
المصرى بانشاء المقالات النافعة، فيستفيدون ويفيدون

وتسعى الجمعية جُهدًا فى انشاء المدارس، وتعزيد كل مشروع

وطنى يكون فيه تقدمٌ للبلاد . وعلى الجملة فانها تسمى وراء التقدم
المصرى ، مهما تنوعت فروعها ، واختلفت طرقه ؛ فالغاية التي تطلبها
عظيمةٌ ، لا يخلو طريقها من المصاعب والعثرات ، ولكنها تعتمد في
تذليلها على وطنية كل مصرى يجب بلاده ، والله المستعان
فيا أيها المصريون عامةً ، ويا أيها الشبان خاصةً ، أسألكم بحق
الوطنية أن تقبلوا على هذا المشروع العظيم ، فالاجتماع بهون الصعب
ويُدنى البعيد

انظروا الى جميع الأمم المُمدّنة ، تروا أهلها قد اتحدت كلمتهم ،
وصحّت وطنيتهم ، وعرفوا لها حقها ، فأدركوا الغرض ، وبلغوا المقصد ؛
ولم لا تفعل مثل ما فعلوا ، وأجدادنا أقدم من ارتضعوا أفاويق
العلم والمعارف ، وبرعوا في جميع الفنون ؛ فهلم بنا نسترجع مجدّهم ،
ونُحْي ما دَرَسَ من آثارهم ، متوسلين الى الحق سبحانه وتعالى ، أن
يبقى لنا دولة العباس الذي تعلقت به آمال التقدم المصرى

مونبلييه مايو سنة ١٨٩٣

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

آيةٌ جمعت من النصيحة أسماها، ومن الحكمة أثبتتها وأعلاها،
وكيف لا وقد اشتملت على قانون ترقى الأمم وتأخرها،
وسعادتها وشقتها

نعم لا تهبُّ الأمم من رقدتها، ولا تنهض من عثرتها، إلا إذا
انبعث فيها روح جديد، هو روح التقدم والفلاح؛ كما أنها لا تسقط
من ذروة المجد إلى قرار الهمجية، إلا إذا نسيت تقاليدها الحميدة،
وتحوّلت إلى الخطة العوجاء، ونبذت وراء ظهورها محاسن خلالها،
وجعلت الرذيلة مسرّح هواها ومناط آمالها

فالباحث في أحوال الشعوب وحوادثها، وأخلاقها وتواريخها،
يجد أن تقدمها يرجع إلى أسباب تعرض لها، وأميال تقوم بأفرادها؛
فباستمكان هذه الأسباب، واتصال تلك الأميال، يعظم أمرها،
ويعلو قدرها، حتى إذا انصرفت الأغراض إلى غيرها، تغيرت
الحال، ودبَّ إليها الانحلال، وأخذ فيها الاضمحلال، ولا تزال
تجربى على ضلّة من أمرها، حتى يبصرها الله بعيوبها، ويكشف لها
عن مواطن أقدامها، ويظهرها على حقيقة ذاتها، فتلتبس أجمع
الدواء، وتسارع إلى اصلاح ما فسد من أمرها، وتنتهج أقوم الخطط

الى ما يكفل لها النجاح ، ولافرادها الرفاهة والهناء
فاذا انتقلنا من هذه القاعدة العامة ، الى القول في حالة وطننا
العزير ، رأينا أنه قد نال حظه من المجد ، ورفعة الشأن ، وبسطة
السلطان ؛ كما نال قسمه من التمهقر والتأخر
ولكل من هذه الحالات علل وأسباب ، تدور معها دوران
المعلول مع العلة وجوداً وعدماً . وحبذا لو قام بعض الأفاضل من
المصريين بتأليف تاريخ لمصر ، يترك فيه سير الملوك ، وما يشابهها
من الحوادث التي توجد في كثير من الكتب ، ويقصر الكلام
على البحث في أسباب تأخر مصر وتقدمها ، من العصر الفرعوني
الى يومنا هذا ؛ فمثل هذا المؤلف يكون عظيم الفائدة ، اذ به
يستفيد المتأخرون من اختبارات من سبقهم ، ويهتدون سبل
الفوز والتقدم

ولسنا نعدم من أبناء الوطن من هم جديرون باتمام هذا العمل الجليل
ولو أمعنا النظر فيما نحن فيه اليوم ، لوجدنا من أهم أسبابه التي
ثبتت أصولها ، ونمت فروعها ، ما غرس فينا من الحسد بعضنا
لبعض ، حتى أورق في كل صدر ، وأثمر في كل قلب ؛ وثقلت على
كل واحد منا حياة أخيه ، وامتلاً جوفه عليه حقداً ، فقام التاجر
يقبح سلعة التاجر ، والصانع يذم صناعة أخيه ، والفلاح يرتكب

وجوه المشاق في افساد الحياة على جاره، كأننا لم نُخلَق للاتحاد والتعاون على فعل الخير، والبر بأنفسنا وبلادنا؛ وإنما خُلِقْنَا أفاعى ينهش بعضها بعضاً. وأنى لنا أن نبلغ مبلغ الحيوانات، فأننا والله لأسوأ منها حالاً، وأتس ما لآ، لأنها إذا أكل بعضها بعضاً، فأنما يفعل ذلك منها من يفعله سدّاً للرمق وامسكاً على الحياة؛ أما نحن فأنما نفعل ذلك شفاءً لأضغان قلوبنا، وتسكيناً لأحقاد صدورنا

على أن تلك النقائص — لتمام تعاستنا — لم تقتصر على طائفة دون أخرى، بل انتظمت في سلكها قوماً كنا نظن أنهم أوفر نزاهة من أن يتلطّخوا بهذا العار، لاشتغالهم بالأداب، وانعقاد الشهرة لهم في فنون الكمالات

فلمست ترى مصرياً شهيداً له بالفضل والتقدم في أى فنٍ من الفنون، أو علم من العلوم، أو صناعة من الصناعات، الأوقد جردت عليه السنة حداد، ترميه بما هو منه براء، وعقدت المجالس لدمه والنيل منه، سعياً في اسقاطه وتجريح سمعته، كأنما هو قد ارتكب وزراً عظيماً بفعله بعض ما يجب عليه لنفسه ولبلاده

وقد ترى لهؤلاء الحساد تفنناً في أساليب تقبيح الأفاضل، والحط من أقدارهم، فمن قائلٍ إن زيدا لم يصل إلى هذه الدرجة من الرفعة أو حسن السمعة إلا لما استعمله من الغش؛ وربما اختلقوا تفصيلات عاجلوا إثباتها بشبه أوهى من خيوط العنكبوت

ومن قائل إن عمرواً لم يعمل ما عمل إلا لقصد الشهرة والتفاخر !
ومنهم من يقول أين خالد من فلان ، فهو أقوى منه حجة ،
وأكثر فهماً ، وأحكم صنعة ، وأشد عزيمة ، وأوسع اطلاعاً . . .
و إلى آخر هذه الأقوال الساقطة ؛ فلم لا يفخرون بأنفسهم
إن كان لا بد من الافتخار ؛ ومتى كان وجود عمرو وبكر في طبقة
الأفاضل البارعين يمنع وجود غيرهم ؛ كلاً ، بل إن ميدان الفضل
ومكارم الأخلاق ، أوسع من أفكار هؤلاء المتعصبين للنقائص ،
المتشيعين للذائل ، المستعبدين للشهوات

يا عجبا كل العجب ؛ أئمننا الحسد عن الإقرار بفضل وطنينا ،
بل ويدفعنا إلى ارتكاب كل مذمة توسلاً إلى إيقاع الضرر بهم ،
على حين أننا لو رأينا أجنبياً لبادرنا بعقد ألوية الثناء عليه ، وملأنا
السهل والجبل بحمده وإطراء ما أثره

ذلك شأننا في جميع أعمالنا ، نروج بضاعة الغير ، ونبخس أبناء
بلادنا حقوقهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله

وليت هذه الحالة الذميمة تعود على صاحبها بنفع ما ، بل نتيجتها
وخيمة على الحاسد والمحسود كليهما ، وعلى الهيئة الاجتماعية بأسرها .
فهي تلبس الحاسد جلباب المقت والاحتقار ، لأنها تحمله على الذميمة ،
والرغبة في كل ما يعود على الغير بالخسارة وذهاب الشأن ، وغير
ذلك من ذميمة الخلال ؛ ألم يعلم هذا المسكين ما خلت به الحكمة

البالغة (المحسود لا يسود) ، فليتأمل في ذلك ، وليتق الله
وأما المحسود ، فربما أضرَّ به سعي حاسديه ، وإن لم يضرَّه فلا
أقل من أن يثبِّط هِمَّتَهُ ، ويخمد عزِّمته ، فإن لم يكن هذا ولا ذا ،
امتلاً صدره حقداً على من يريدون به السوء ، أو يجزع من انتشار
مثل هذه الأخلاق في وطنه ومستقط رأسه

والمضارُّ العظمى التي تنالُ من مصلحة الأمة بمجموعها ، إنما هي
مظهر من مظاهر الضرر اللاحق بكل من أفرادها ، فهي بمثابة
الجسم ، يشكى كله إذا مرض عضو من أعضائه

وما مثل الحاسد إلا كمثل إنسان رأى جاره يرفع بناءً شامخاً ،
فعرَّ ذلك عليه ، فما زال ينقر في أساس جداره ، حتى تداعى البناء ،
فانهال على بيته ونَسِيهِ ، ودفن تحت أتقاضه ، فأتى ثالث فأغار على
ملك الاثنين ، ورفع فوق آثارهما صرحاً رفيع العماد ، وحمد عملهما
الذي عاد عليه بأعظم المصالح ، وأبلغ الفوائد

وتلك حالنا بعينها ، نخدم الغير بكراهة أبناء وطننا ، فلا ننفع
أنفسنا ، ولكن نجلب الشر لبلادنا

ما بالنا نحسد زيداً أو عمرواً على ما آناه الله من فضله ، ولِم
لا نفعل مثل ما فعل ، فنحْضِلَ على ما حَصَلَ ، ونكون قد نفعا
أنفسنا ، وخدمنا بلادنا

هذا والله أجدر بنا، وأسلم عاقبة لنا، فنحن الى الاتحاد أشد
احتياجاً من غيرنا

فهل جهلنا ما انطوى عليه صفاء القلوب من السرّ؟ ألم يصل
الينا ما كان عليه العرب من العزّة والمنعة في أول نشأة الاسلام،
وما صاروا اليه بعد ذلك من الذل الذي جلبه عليهم الحسد والبغضاء؟
أليس الحسد هو الذي فرّق كلمتهم وأذهب ريحهم؟ فلماذا انحول
أنظارنا عن هذه الدروس البليغة، ولماذا تعشى أبصارنا عن رؤية
تلك العظات البالغة؟ أنريد التقدم ونحن نمشي في طريق التأخر؟
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * إن السفينة لا تجرى على اليبس
فهيئات أن نصل الى المجد إلا من طريقه المشروع، وسبيله
الواضح؛ اللهم إلا اذا انعكست الأمور، وطلعت الشمس من مغربها؛
نبتنى الإصلاح، ولا نعمل لذلك شيئاً، ونعلل النفس ببلوغه ونحن
على ما نحن عليه أمس. لعمر أبيك ان ذلك لمن رابع المستحيلات؛
فان الأسباب اذا لم تتغير، فلا تُغير في المُسببات، والمقدمات اذا لم
تبدل، فلا تبدل للنتائج

فيجب علينا أن يرجع كل منا الى ضميره، ويستجلى عيوبه
فيجتنبها، وتعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم

الخدمة العسكرية

زارني أحد أصحابي، ودعاني لأخرج معه إلى الزهراء، فليتُّ طلبه رغبةً في الراحة من عناء الأعمال، بترويض الفكر. وبينما نحن في بعض الطريق الموصل إلى مركز المديرية، اذ لقينا جمًّا غفيرًا من النساء والأطفال، يتقدَّمه طائفةٌ من الرجال، نكَّر الحزنُ معارف وجوههم، وأخذَ الأسى فيهم مأخذه. وبينهم شبانٌ يكونون ويستعبرون، والنسوة من خلفهم نادبات صارخات، مُرسلات الشعور، يطمئن الوجوه، ويلدمن الصدور؛ فتقدَّمت وصاحبي نكشف خبر هذا الجمع الحزين، وتقف على أمر تلك المصيبة المدهمة التي حلت بالقوم، لأننا ظننا لأول وهلة أن القوم يشيعون ميتًا، غير أننا لم نَرَ بينهم نعتًا، فإزدادت دهشتنا، فلم ننسب أن علمنا - ويا للأسف أن هذا العويل وهذا الصراخ، إنما بعثه قبول بعض أولئك الشبان في القرعة، وانتظامهم في سلك الجيش؛ فبلغ مني الجزعُ، وقلت لا حول ولا قوَّة إلا بالله، أين حب الوطن؟ وأين معرفة الواجب؟ وذكرني ذلك بما كنت أراه في فرنسا من فرح المقبولين في القرعة وابتهاجهم، حتى أنهم يشنون وأمامهم الموسيقى تصدح بالألحان الوطنية، وقد رشق كلُّ منهم في قبَّعته علمًا وطنياً

صغيراً، إشارة إلى أنه تشرف بالانتظام في سلك الجيش للدفاع عن
وطنه، والذود عن حقوقه، ولو كان وراء ذلك ما وراءه من إتلاف
النفس، واراقة الدماء، وركوب أشد الأخطار

وقد ازداد غيظي وحنفي عند ما قابلت جمعاً آخر مُنْطَلِقاً من
المديرية، وهو يَهْلل وَيُكَبِّرُ، فرحاً بأن الشاب الذي يرافقه لم يُقبل
إذ وُجِدَ «شُرْكَاء» كما يقولون

وقد أذكرني هذا المنظر أيضاً بما سمعته وأنا في فرنسا من أن
أحد الشبان قتل نفسه، لأنه لم يقبل في القرعة؛ فصحت بصاحبي،
ألا قابلت بين حالة بلادنا وحالة البلاد الأخرى؛ فرأيتُه مثل جَزَعاً
مما سمع ورأيتُ، ساخِطاً على هذه العادات

ولم نكد تنتهي من حديثنا، حتى لَمَحْنَا بعضَ الأفرنج واقفين
على مقربة منّا، مبهوتين لما رأوه؛ وكان بينهم شاب أعرفه ويعرفني،
فضاق صدرى لما رأيت على وجوههم من علامات الاحتقار والازدراء،
بعد الذي شاهدوه من عادات أبناء وطني، ومبلغ شجاعتهم وحبهم
للدفاع عن اوطانهم؛ فقلت لصاحبي، لِئَسْرَعُ في مشيتنا تفادياً من
لقائهم، والحديث معهم في شأن هذه المناظر التي تَصَدَّعُ لها كبد
كل وطني يجرى في عروقه الدم المصري. وكأن القوم قد أدركوا حيرتنا
فأسرع صاحبي إلينا وأبتدرنا بالسلام، ودعانا إلى الذهاب معه للترهة

والرياضة؛ فقلت في نفسي قد والله وقَعْنَا فيما كنا نخشاه، فاعتذرت كثيراً، ولكنه لم يقبل مني اعتذاراً، وودَّعَ اخوانه، ومضى معي وصاحبي الى شواطئ الجعفرية، وهي المُنَزَّةُ الوحيد الذي يخرج اليه أهل طنطا لاستنشاق الهواء، والتمتع بمناظر الطبيعة الزهراء. فابتدأ صاحبنا الغربي يكلمنا كما جرت العادات في بلاده على الجو والهواء، وماء النيل الذي يعلو صعداً كلَّ يوم في التربة، وغير ذلك من المسائل، حتى انتهى الى الكلام في مسألة القرعة، وما رآه في طريق المديرية، وسألني عن أسباب خوف الفلاحين من الخدمة العسكرية، وكراحتهم لها

فأجبتُه: اعلم أيها الصديق، أنه مضت مدة طويلة كانت فيها معاملة الضباط للعسكر شديدة قاسية، اذ كانوا يسومونهم الخسْفَ، على أنهم أنفُسُهُم كانوا عُرْضَةً لغضب من فوقهم في الدرجة، ومن هم أسمى منهم في الرتبة؛ فانه لم يكن للجيش قانون غير ما تمليه الأغراض وتوجيه الأهواء!

ولم يكن أيضاً للخدمة العسكرية حدُّ تنتهي اليه، ولا مدة معلومة يمضيها الجندي، ثم يرجع الى أهله وخلانته؛ بل ما دام فيه رمق من الحياة فهو جندي، يكذب أكبر الكذب، وينصب أعظم النصب، يأكل في كل يوم قليلاً من العدس، وينام على قطعة حصير، حتى صبح في

اعتقاد الأهليين - ولهم العذر - أن موت الولد واتصاله بالجندية بمنزلة سواء، ما دام قد كتب عليهم الحرمان من فئدة أكبادهم الى ما شاء الله

ولذلك كانوا يقيمون الحداد، ويكفون ويولولون يوم يؤذن بالرحيل، ويودع للفراق الطويل

- فقاطعتني صاحبي قائلاً: ولم استمرت هذه العادات الى الآن مع وجود اللوائح العادلة، وحسن معاملة الجند، وتعيين مدة الخدمة العسكرية، مما لا يبقى معه سبيل الى هذه الأحزان، واقامة تلك المناجات؟

- فأجبتُه بأن ذلك حاصل بحكم العادة، وقوة تأثير الماضي. ثم أخذنا في أحاديث أخرى، حتى استأذن صاحبيا الغربي في العودة الى منزله، ومضيت وصاحبي المصري في التنزه؛ فقال لي صاحبي: أتظن أن السبب الوحيد لكراهة الفلاحين للخدمة العسكرية هو سوء معاملة الجيش في الأزمنة الماضية؟ أو ليست هذه الكراهة أمراً طبيعياً في الفلاحين على العموم؟

- فأجبتُه بلى، أنت مصيبٌ فيما تقول، ولكن هذه الكراهة ليست مقصورةً على الفلاح المصري فقط، بل هي مَعْرُوزَةٌ في نفوس جميع الفلاحين في المعمور

ذلك لأنهم يعزون الأرض التي نبتوا فيها، وفيها رزقهم، واليها
مرجعهم، فلا يفارقونها إلا بالرغم منهم، مضطرين بحكم الضرورة
وهناك أمرٌ آخرٌ يجب الالتفات إليه، وهو أن الخدمة العسكرية
لا تحلو لصاحبها إلا إذا عرف قدرها، وعلم أنها من أعظم وأقدس
الواجبات التي يفرضها الوطنُ على أبنائه

يطلبهم الوطن بأن يخاطروا بحياتهم، ويسفكوا دماءهم في
إعزاز كلمته، وإعلاء شأنه، وحفظه من صولة العدو وسطوة المعتدى،
وهيئات أن يتم لهم ذلك إلا بالتعليم الذي يُذكرُون به واجباتهم،
ويقفون به على تاريخ بلادهم، ويحافظون على مجد آبائهم
فعلينا نحن المصريين الاهتمام بشأن التعليم، ونشر لواء المعارف
في جميع القرى والبلدان، حتى نعلم حقَّ العلم مبالغ واجباتنا نحو
وطننا وبلادنا، والسلام

طنطا أغسطس سنة ١٨٩٤

مدینة مونیلیہ

وجمعیة الطلبة

لک اللہ ایتھا الروضة الفیحاء، والغادة الهیفاء، فلقد تهت علی
غیرک من المدائن، وتفردت بعلمک ومدارسک الحفیلة بالعلوم
والآداب، حتی سارت بذكرک الرکان، وطبقت شهرتک الآفاق
صفا ماؤک، ورق هواءک، واعتدل جوک، ولطفت أخلاق
سکانک، فجذبت الیک شباب البلاد الأجنبية، فأقبلوا علیک من
کل ناحية، یتراضعون لبان معارفک، ویهتدون علی سنا علومک،
فلا زلت راقية فی أوج التقدم والعلاء

ذکرت أيامک المبارکة أيام کنت منتظماً فی سلك طلبتک، فحن
قلبی لذكرک، وأبتدرت یدی الیراع عله یصور بعض ما یحتاج فی
صدری من الشوق الیک، وما طبع فی نفسی من روائع آثارک،
وهیهات أن یسعدنی فی وصف محاسنک، وتبیان مزیایک وهن
کثیر، فهل یدکر متزها تک البدیعة، أو ضواحیک العجیبة، وإذا
تحوّل الی مشارق علومک، وعاهد آدابک، فأین هو من القدرة
علی وصف مدرسة الطب التي ینتسب انشاؤها الی العرب، أو
مدرسة الزراعة التي اختالت علی أترابها، أو مدرسة الحقوق التي

لو أنفقت أيام العمر في الشناء على اساتيدِها، لما وقَّيتهم بعض ما
يجبُ علىَّ لهم من الحمد
ولا أنسَ لا أنسَ دورَ آثاركِ، ولا مناظرَ تمثيلك التي تملك اللبَّ،
وتهب القلب، ولا مكاتبك التي احتشدت بكرائم الآثار، وروائع
الافكار، ولا... ولا... مما لا يدركه العدَّ، ولا يتناولُه الاحصاء
ولكنني أرى حقاً علىَّ أن أخصَّ جمعية طلائك ببعض
تفاصيل، عسى أن يكون فيها فائدة لأبناء وطني الأعراء، فأقول:
من بضع سنوات لم يكن للطلبة في موبلييه محل خاص يجتمعون
فيه وقت الفراغ من الأعمال، فكانوا يقابلون بعضهم بعضاً في
القهوات على سبيل المصادفة؛ فرأى بعضهم أنه لو كان لهم محل
خاص بهم يصبح مثابةً لهم في اجتماعاتهم، لكان خيراً لهم
فاجتمع الرأي على أن يتخذوا لهم نادياً، وسرعان ما استأجروا
لهذا الغرض بيتاً، وتعاونوا على أداء نفقاته، وابتاعوا ما يليق به من
الأثاث، وفرضوا رسماً على من يريد الاشتراك معهم، فانضم اليهم
عدد عظيم من طلبة المدارس العليا، وثابروا على ذلك زمناً، الى أن
رأت البلدية وجوه المنفعة في هذا النادي، وأنه من الواجب عليها
مساعدة الطلبة، فابتنت لهم نادياً في أحسن بقعة من المدينة،
جمعت فيه بين أساليب الفخامة والزخرف، وأسلمته لهم في يوم

مشهود، وقدّرت عليهم في كل عام قسطاً يؤدونه، بحيث لا تمضي بضع سنوات، إلا وقد دخل النادي في ملكهم، فأقبلوا عليه أيّما إقبال، وتعهد كل منهم بدفع ثلاثة فرنكات شهرياً، وسنوا الأئحة للعمل بأحكامها، وعهدوا بالادارة الى لجنة ينتخبون أعضاءها مرّة في كل عام، واشتركوا في عدّة جرائد علمية، وسياسية، وأدبية، بلغات مختلفة، وأنشأوا مكتبة ضمّنها كثيراً من الكتب المفيدة، ومحلاً لتناول القهوة، وأصدروا جريدة دعوها بجريدة جمعية الطلبة بمونبلييه، ترد علينا كل شهر مبادلة لمجلة التقدم المصري، وقد رأينا في العدد الأخير منها تقريراً لمجلة التقدم على غاية من الرقة والبلاغة، فنشكر لها هذه العواطف الشريفة، ونرجو لها كل فلاح

ولا يخفى ما لهذه الجمعية من المزايا الجليلة، فانها تهري للطلبة محلاً يجتمعون فيه، فيقابلون اخوانهم، ويمضون أوقاتهم على أحسن حال؛ فمنهم من يأتي لتناول القهوة، أو لعب البليار وما أشبه ذلك؛ ومنهم من يقضي الساعات الطوال في مطالعة الجرائد والمجلات، أو الكتب النفيسة. وزد على ذلك أنه قد تألفت في هذه الجمعية عدة لجان، لتسهل على الطلبة الحصول على ما يرجونه من أنواع العلوم، وفنون الرياضة: منها لجنة الأدبيات، ولجنة المرافعات التي

تشرفتُ بأن كنتُ وكيلاً لها، ولجنة الموسيقى، ولجنة تعليم السلاح،
ولجنة الفوتوغرافيا وغيرها

وفي كل شهر أو شهرين، تعدُّ الجمعية احتفالاً تدعو إليه رجال
العلم، ووجوه المدينة لحضور تمثيل أو سماع خطابة، أو نحو ذلك،
وحيثما يكون الدخول مجانياً، وحيثما يكون برسم

وترى الحكومة والأهلين مقبلين على مساعدتها، فقد أهدى
رئيس الجمهورية وساماً لرئيسها، فضلاً عن أن نظارة المعارف وبلدية
المدينة تعهدانها كل عام بقدر من النقود، عدا الهدايا التي يُتَّحَفُّها
بها جماعة الموسرين، والمؤلفات التي يهاديها بها جمهور المؤلفين

كل ذلك مما يزيد في اعتبارها وتقدمها، حتى لقد أُرْبِي إيرادها
الآن على ٦٠٠ جنيه سنوياً

وفوق ما للجمعية من المنافع الأدبية الجليلة، فإنها قد اتفقت
مع كثير من المحلات التجارية، على أن تبيع أعضاءها ما يحتاجون
إليه من السلع، مع التجاوز عن عشرة أو عشرين في المائة من جملة
أثمانها، على حسب الأحوال

وقد حصلت أيضاً على عدة مزايا مادية أخرى من هذا القبيل،
حتى أصبحت الآن وهي من أهم جمعيات الطلبة القائمة في مدن
فرنسا على الإطلاق

فالى مثل هذه الجمعية ألفت أنظار طلبة المدارس العليا ، راجياً
أن تأخذهم الحمية الوطنية ، فيقدمون على انشاء نادٍ يجتمعون فيه ،
ويكون لهم بذلك الذكر الجميل ، والشكر الجزيل^(١)

القاهرة في يونيو سنة ١٨٩٤



(١) أنشئ بعد ذلك نادى المدارس العليا بالقاهرة في سنة ١٩٠٥